

د. أحمد خالد توفيق
روايات مصرية للجيب
45
الشمس
الأرجوانية
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com

مقـــدمــة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شـاب يجاهد ــ كما يقول الغلاف ــ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحــدة (سافارى) هى البطــل الحقيقى لهـذه القصص ، و(ســافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الــراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقــة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شــائع شــبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحــدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فــى القارة السوداء ، وســط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دوليــة لكن بطلكم الفقيــر المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عــادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك ــ كما قلنا ــ من العســير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعــه وأقصــه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليــط عجيــب من الطــب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

* * *

-1-

قالت باولا :

ـ « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

الشمس الأرجوانية ..

تحرق العينين فتمنحنا لذة ألا نرى ....

★ ★ ★

وحدة سافارى ليلاً ..

صوت الصمت .. صوت أجهزة التنفس ... صوت المرقاب الرتيب ..

وأنا جالس وحيدًا فى قسم العناية الفائقة ، أحاول أن أركز فى كتاب ممل .. من حولى تتناثر الستائر الزرقاء ، وكل ستار يخفى

قصة ما . تتباين القصص لكن نهايتها واحدة فى كل مرة .. العجز التام والأقطاب المثبتة على الصدر وقناع الأكسجين والنظرة التى تتضرع ..

وأنا جالس وحيدًا فى قسم العناية الفائقة ..

الطبيب الإيرانى (فارزاد) معى ، لكنه مصاب بإسهال شديد .. يغادر المكان كل عشر دقائق ، ومع رحيله يطلب منى :

ـ « خذ الحذر .. هه ؟.. آى ! »

فأجلس متوترًا بانتظاره . لماذا يصر الإيرانيون على عدم ارتداء ربطة العنق مع البذلة الكاملة ؟.. يفضلون الصندل كذلك .. يجب أن أسأله عن هذا ..

أنا أكره العناية الفائقة وأكره أجهزة تخطيط القلب الكهربائية .. لا أفهم شيئًا من هذه الرسوم السريالية ، وقد فشلت تمامًا فى أن أقرأ سوى العلامات الخطيرة الكبرى : الاحتشاء .. موت عضلة القلب .. اضطرابات إيقاع القلب .. ما يكفى كى أصرخ ذعرًا وأنادى أحد المختصين. لقد فشلت فشلاً تامًا فى الأمراض الباطنية ، وما أعرفه منها يتناسب مع جراح .. مع الجراحة أنت تفتح وترى بعينك وتغير بيدك ، بينما فى الأمراض الباطنية أنت

ترج الصندوق محاولاً معرفة عدد الكرات بداخله ولونها وأيهـا تالف .. ثم تستعين بعقار تتوقع منه أن يزيل الكرات التالفة ..

لقد تشاجرت اليوم مع برنادت . مشاجرة قوية فى الواقع. لن تهمك التفاصيل ، لكنى آذيتها بحق وكنت فظًا .. مشكلة الشجار معها أنها تجعلنى أكره نفسى فعلاً . لا أعتقد أننى قادر على تأمل وجهى فى المرآة حاليًا .

ثم الاعتذار !!.. هذا أصعب شىء فى العالم ..

هى حامل .. لا يجب أن أضع عليها أعباء أكثر ، لكـن مـن المدهش أن ترى كيف تنشأ مشاجرة من لا شيء.. ثـم يتحـول الأمر إلى : لماذا تدفعنى ؟.. لأنك تجذبنى .. أنت كـاذب ..أنـت وقحة ... كيف تجرؤ على أن تطلـق علـى وقحـة ؟.. لأنـك تتهميننى بالكذب .. إلخ ...

فى النهاية يتعالى سور عملاق لم يكن موجودًا منذ ساعات ..

الممرضة الهندية الرقيقة تظهر من مكان ما ..

تقول بالإنجليزية وبلهجتها التى تضغط علـى حـرف الـراء بطريقة مضحكة :

ــ « دكتور .. أعتقد أنه لابد أن ترى المريض فى سرير 8 »

نهضت معها متوترًا .. نشق طريقنا بين غابة الستائر والجو المعقم الذى أكرهه هنا ..

المريض فى سرير 8 رجل أفريقى فى الستين مـن عمـره . ينظر لنا بعينيه المتسعتين فى رعب والعرق يغمر جبينه. أنظـر لشاشة المرقاب فأرى العلامات المخيفة .. هناك احتـشاء فـى أسفل عضلى القلب .. هذا شىء جديد ..

أوردة عنقه محتقنة تمامًا .. يبدو الأمر كأن هناك خـراطيم عملاقة تخرج من رأسه ..

ــ « كم ضغط دمه ؟ »

ــ « سبعين على خمسين .. »

أضع السماعة على صدره فلا أسمع شيئًا .. الصدر هادئ ..

أين ذهب ذلك الإيرانى ؟.. أريد من يكون معى .. لكن الموقف خطير ولا يحتمل الانتظار. ملت على المريض وابتسمت وقلت له :

ــ « ما اسمك ؟ »

نظر لى فى رعب ولم يتكلم. واضح أنــه لا يــتكلم إلا بلغــة البانتويد .. لا يفهم الفرنسية .

قلت للممرضة بسرعة :

ــ « أعطيه حقنة من الفروسيمايد حالاً .. يجب الحصول على إدرار سريع .. أريد محلولاً من النترات لتوسيع شرايينه التاجية .. »

هزت رأسها وانطلقت بنشاط البرغوث تحضر العربــة إياهــا التى تحوى كل شىء ، بينما رحت أحدد لها جرعات كل شىء ...

أفرغتْ المحقن فى ذراعه ثم قامت بتعليق محلــول النتــرات وضبطت سرعة التنقيط ...

وقفت أرمق المشهد فى رضا وأنا أنظر إلى شاشة المرقاب ..

عندما ظهر (فارزاد) وهو يجفف عرقه والماء الذى غـسل به وجهه ، مستعملاً منديلاً عملاقًا يمكن أن يكون ملاءة ... كان يزرر المعطف الأبيض وينظر للمرقاب .. ثم سألنى لاهثًا :

ــ « ماذا هنالك ؟.. ما هذا المحلول ؟ »

شرحت له بسرعة ما قمت به .. لكنه لم يكن يصغى لى .. كــان يرمق الشاشة فى اهتمام ، ثم صرخ وهو يوقف سريان المحلول :

ــ « يا لك من أحمق !.. إن .... »

وهنا نظرت إلى الشاشة فرأيت ما أثار رعبــى .. واضــح أن الأمور ليست على ما يرام بتاتًا .. ضغط دم المــريض يــنخفض بسرعة البرق .. إن المريض مرهق جدًّا والعرق صــار بركــة تغمر الوسادة ، ثم إن عينيه تغربان .

ــ « أعدى لى الدوبامين .. بسرعة ! »

دوبامين ؟.. المفترض أن هناك عبئًا شــديدًا علــى القلــب ، وعليك أن تريح هذا العبء بالمدرات والنترات ، بينما الدوبامين يزيد من العبء ..

قال لى وهو يقوم بتغيير المحلول :

ــ « هناك احتشاء سفلى فى القلب .. مع فشل دورى عام ... إعطاء الفروسمايد أو أى مدر لهذا المريض معناه الإعــدام !.. لابد من إعطائه ما يقبض الأوعية ! »

كان الموقف سيئًا وقد وقفت فى بلاهة أرقــب مــا يــدور ، وشعرت بأننى عاجز عن التدخل أو قول شىء واحد ..

ـ2ـ

عندما يكون هناك غراب بين ويدعونه قائلين : تعال لتلعب دور غراب البين قليلاً ، فهذا أسعد أيام حياته ..

باركر البريطانى نائب المدير يجلس أمامى على مقعد ، ولا مكتب أمامه .. يضع ساقًا على ساق وقد أراح بعض الأوراق على ركبتيه ، بينما يقف جوار النافذة د. (موريس شريدان) رئيس العناية الفائقة الجديد . لا يحاول التدخل فى المحادثة لكنه يتابعها باهتمام . وأقف أنا على بعد مترين منه وقد رفعت رأسى فى شموخ ، ودسست يدى فى جيبى المعطف لأبدو غير مهتم ..

قال باركر وهو يقلب الأوراق :

ـ « وهكذا تجد أنك ارتكبت خطأ فنيًا جسيمًا وقد كدنا نفقد المريض ، لولا براعة د. فارزاد .. »

لم أرد . فقد قلت كل شىء ..

عاد يقول وقد بدا واضحًا أنه مستمتع بالموقف :

ـ « هذه من الأمور البديهية التى يجب أن تعرفها إذا أردت أن تتواجد فى العناية الفائقة .. د. (شريدان) يؤكد هذا .. »

شعرت كأنه ذبابة تصر على أن تقف على طبقى .. لن يرحل أبدًا مهما فعلت .. يجب أن أجد علبة بيروسول .. قلت فى اشمئزاز :

ـ « لست مختصًا بالعناية الفائقة .. كان دورى هناك هو أن أساعد .. اساعد .. ولم يكن ضمن خططى أن يذهب الطبيب المختص إلى الحمام مرارًا .. فجأة صرت وحدى ، وكان على أن أتخذ قرارًا سريعًا وقد اتخذته .. »

ـ « وكان خطأ .. »

ـ « ليس ذنبى أن أى طبيب عناية فائقة عملت معه لم يخبرنى بهذه النقطة .. »

ـ « لا تتوقع أن ترى كل شىء أيها الشاب .. هناك جزء يجب أن تعرفه وحدك .. »

قال د. (شريدان) بالفرنسية وفى صبر :

ـ « أنت لم تر حالة ساركوما فى الثدى .. عندما تراها سوف يخطر لك أنها خراج متقيح ولربما خطر لك أن تحاول فتحه بالمبضع .. عندها أنت تقتل المريضة ؛ لأنك تنشر خلايا السرطان

فى كل مكان .. أنا لم أعش هذا الموقف ولم أره ، لكنى قـرأت هذا التحذير فى كل كتب الطب منذ كنت طالبًا .. هناك حد أدنـى يجب أن تعرفه. لا تعط مسكنًا قويًا لمريض التهـاب الزائـدة .. لا تعط المورفين لمريض الفشل التنفسى .. لا تعتـصر طحـال المريض بـداء السراجـة Infectious mononucleosis .. حتى لو لم تر مريض سراجة طيلة حياتك .. »

كنت أشعر بضيق لا حد له .. فلينته هذا الموقف سريعًا. هلم أعدوا كتيبة الإعدام فى الفناء الخلفى .. لا تعـصبوا عينـى .. سوف أقف أمامها فى ثبات ولكن أصـدروا الأمـر بـسرعة .. استعداااد .. صوب ... اطلق النار !.. فقط انتهوا بسرعة ..

المشكلة هنا هى أننى لا أحمل نحوهم أى حقد .. هناك شخص واحد أشعر بكراهية شديدة نحوه هو أنا .. عندما لا تستطيع أن تكره الآخرين فأنت فى مشكلة .. عندما لا تستطيع اتهامهم بأنهم مجموعة حمقى متعصبين يضطهدونك لأنك عربى ، فأنـت فـى مشكلة .. الآن الموقف واضح جدًا .. لقد تصرفت بحماقة وأنـا أعاقب لهذا ..

ونظرت لهما ..

من الواضح أن جريمتى ليست شنعاء .. برغم كل شىء كنت تحت إشراف طبيب مختص ذى خبـرة . إن فداحـة جريمتـك تتناسب مع مستواك العلمى ، وأنا لست فى موضع متقدم علميًا فى الأمراض الباطنية .. ولو حوسبت بدقة لكان هذا فى غرفـة الجراحة لا هنا ..

هذا يسبب لهما مشكلة .. يريدان لى عقوبة أخف من الفـصل وأقسى من مجرد التوبيخ ..

كنت قد ذكرت قصتى كاملة وبأمانة .. لقد تصرفت على قـدر ما أعرفه ، ولو كنا فى عالم آخر فيه وظائف فسيولوجية مختلفة لنلت وسامًا أو ترقية .. كل ما استطيع أن أعد به هو أن أقـرأ كتابًا أو اثنين عن الحالات الحرجة .. هذا هو كل شىء .. والآن ماذا ؟.. هل شكلتم فرقة إطلاق النار ؟

لا . لم يشكلوها بعد ..

قال باركر وهو يطوى أوراقه وينهض :

ـ « لم نستقر بعد على الإجراء المناسب لك يا د. (عظيم).. لكن لا يمكنك حتى ذلك الحين أن تستمر فى أداء عملك .. اعتبر نفسك موقوفًا عن العمل لمدة أسبوع ... »

كان هذا قاسيًا ..

أولاً فيه إهانة قوية .. ثانيا فى الغربة يعتبر العمل هو التسلية الوحيدة الممكنة حتى لا تلقى بنفسك من الشرفة .. معنى هذا هو قتلى ببطء ...

لكن لا سبيل للاعتراض .. لقد أصدر الهر هتلر قراره ولم يعد أمامى سوى التنفيذ.. أنا فى إجازة إجبارية لمدة أسبوع وربما أكثر. حالتى المعنوية لا تسمح بذلك أبدًا .. جو البيت ليس على ما يرام وكنت بحاجة للعمل .. الكثير من العمل ...

★ ★ ★

كانت (برنادت) تعقص شعرها أمام المرآة .. نظرت من فوق كتفها إلى حيث جلست على الفراش أطالع كتابًا ، وسألتنى دون أن تلتفت :

ــ « ألن تذهب للعمل ؟ »

قلت فى فتور :

ــ « أوقفونى عن العمل لمدة أسبوع .. »

فهى لا تعرف شيئا عن قصة العناية الفائقة والتحقيق ، ويبدو أنها شعرت أن السؤال أكثر يحمل شبهة مودة لا سمح الله ، لذا احتفظت بوجهها باردًا بلا تعبير وواصلت تمشيط شعرها ، ثم سألت :

ــ « ألن تتناول الإفطار إذن ؟ »

نحن نتناول الوجبات فى المقصف غالبًا ما عدا تلك الأيام التى أشتهى فيها طعام البيت .. قلت لها وأنا أتمطى :

ــ « نعم .. لست جائعًا .. هناك جبن وخبز فى الثلاجة على كل حال .. لا تقلقى .. »

لم تكن قلقة .. واضح من وجهها تمامًا أنها ليست قلقة ...

وضعت المعطف على كتفيها ثم لفت السماعة الطبية حول عنقها واتجهت للباب .. سألت لمرة أخيرة :

ــ « هل تريد شيئًا ؟ »

ــ « لا .. شكرًا .. »

وانغلق الباب فى وجهى ..



ـ3ـ

عرفت المكان على الفور عندما دنت منـــه ســيارة صـــديقى (ماكفلاى) .

كلا .. ليست ظاهرة (ديجا فو) .. كنت هنا فعلاً ، ومارست عملاً يشبه ما يقوم به أبطال الأفلام عندما وثبت لأمنـــع تلــك الطبيبة الفرنسية من تمزيق عنق غانية روسية . كان هذا فـــى الليل .. الكثير من الصراخ .. البكاء .. العنف ...

كان اسم هذا الملهى / المقهى هو (مولانجا) . الساقى الذى يدير المكان كان يحمل اسم (مولانجا) ، وهو أفريقى ضخم الجثــة له لون الباذنجان الأسود وشعر رمادى مجعد مزرق قليلاً ..

تغيرت حياته كلها من مزارع إلى ساق ، وتحول هو نفسه من (مولانجا) إلى (ألبرت) ، عندما رأى كم يكسب أهل وطنه من الغربيين. لقد حول هذا المكان الواقع على تخوم أنجاوانديرى إلى ناد .. ليس ناديًا فحسب ، فقد أتـــاح لـــرواده إمكانيـــة تعـــاطى المخدرات وممارسة الفواحش ..

أدخل على المحل ما يناسب الذوق الغربى ، مع بعض لمسات أفريقية مثل الأقنعة والرماح على الجــدران .. مثــل الموســيقا

الأفريقية المنبعثة من سماعات عملاقة .. مثل الخمـــر المحليـــة القوية التى يمزجها بما يشربه هؤلاء القوم .. أيضًا لم ينس أن يبتاع منضدة بلياردو من مهاجر ألمانى وأوراق لعب ..

تدريجياً صار الزبون اثنين ثم ثلاثة ثم جاء يوم ازدحـــم فيـــه المكان ...

كان المكان فقيرًا قذرًا لكن هذا الجو شديد المحلية كان يروق للغربيين .. وحين تدخل المكان ماعز لم يكن يطردها .. وحـــين يلهو أطفال عراة على الباب لم يكن يمنعهم .

لم تكن الأخلاقيات تضايقه ، فهو لم يحاول أن يفسد أهل وطنه بل كان يفسد الغربيين !. هكذا كان يمارس عمله بروح (وطنيـــة) عجيبة بعض الشىء هى أقرب إلى (التأميم) .. إنه يؤمم ما فى جيوب هؤلاء الأوروبيين لصالحه .. قليلة هى الأعمال الوطنيـــة المربحة لهذا الحد .

هكذا اقتادنى (ماكفلاى) إلى هذا الوكر عندما جاء المساء ، وعندما قلت له إننى أريد أن (أعبث) .. ويبدو أنه فهم العبــث بشكل مختلف نوعًا ..

سألنى وهو يوقف السيارة :



ـ « هل تنوى أن تسكر ؟ »

قلت فى حزم :

ـ « لا أتعاطى أى نوع من الخمور وأنت تعرف هذا .. »

عاد يسألنى :

ـ « هل أجد لك فتاة روسية مناسبة ، أم تفضل الأفريقيات ؟ »

قلت فى حزم :

ـ « لا أريد أى كلام فارغ من هذا الطراز .. »

نظر لى للحظات ونفث دخان لفافة التبغ بكثافة فى وجهى ، ثم راح يهتز بالضحك ... يهتز حتى راح يسعل :

ـ « إذن سأكون شاكرًا .. كح كح .. إذا شرحت لى لماذا جئت هنا ؟.. كح كح .. لو كنت قد جئت للصلاة فأنا أعرف مسجدًا ممتازًا على بعد كيلومترين .. »

قلت وأنا أغادر السيارة :

ـ « أريد جوًا مختلفًا .. لا هو البيت ولا هو (ســافارى) .. أريد تجربة فريدة .. »

ترجل من السيارة ، وقد قدر الموقف .. لن يطول الوقت قبل أن يقنعنى بتناول كأس .. هكذا قدّر .. والكأس بعدها كأس .. بعد هذا سأكون على استعداد لأى شىء .. فى الصباح سألومه كثيرًا ثم أشكره على أنه جعلنى أتعلم العبث ..

هناك صفة دائمة فى شاربى الخمر لاحظتها معهم جميعًا .. إنهم بحاجة لإقناع شخص آخر ... لهذا يتكلمون عن (نديم الشراب) .. عادة شرب الخمر تشبه العدوى فى أنها راغبة فى الانتشار بأية طريقة .

دخلنا المكان ، وكان الوقت مبكرًا فلم يكن ثمة زحام ..

رأيت بعض الأوروبيين يلعبون البلياردو . وبعضهم يلعب الورق .. ينظرون لى بوجوه بلا تعبير .. لفافات التبغ تتدلى من الأفواه ..

انتقينا منضدة فجلسنا ..

جاء (ألبرت / مولانجا) والمنشفة تتدلى من خصره .. كالعادة يمارس كل عمله بالفانلة الداخلية ويعلق صليبًا كبيرًا لا علاقة له بالتدين ، كالذى يعلقه أباطرة المخدرات اللاتينيين .. نظر لى بسرعة وأعتقد أنه لم يتذكرنى ..

قال (ماكفلاى) لى باسمًا وبالإنجليزية التى لا يفهمها الساقى على الأرجح :

ــ « لا تحسبن أننى سأطلب لك كوبًا من اللبن .. »

لا .. الساقى يفهم الإنجليزية فعلاً ، وقد قال بلهجة العارفين :

ــ « سأحضر لك بعض اللبن .. أعرف طرازك .. هنا شعارنا هو : عش ودع غيرك يعيش .. هو لن يسخر منك لأنك تشرب اللبن ويتهمك بأنك طفل يرضع ، وأنت لن تنتقده لأنه يشرب الخمر وتتهمه بأنه منحل .. »

هكذا وجدت أمامى كوبًا كبيرًا من اللبن .. رشفت رشفة فوجدته جيدًا ودسمًا .. لابد أن لى شاربًا أبيض مثل بابا نويل الآن ...

قال (ماكفلاى) وهو يفعم كأسه بسائل أصفر ما :

ــ « هل تجد التجربة فريدة بما يكفى ؟.. كوب لبن كبير فى حانة .. والمشكلة هى أننى لا أفهم ما تحاول أن تفر منه .. »

ــ « الشعور بالفشل .. الشعور بالحماقة .. الشعور بأنك لست كما ظننت .. »

ثم أضفت فى مرارة :

ــ « يسهل أن تفر من مشاكل العمل إلى البيت والعكس .. المشكلة هى أننى لا أستطيع الفرار فى أى اتجاه .. أنا مرهق .. أريد أن أريح رأسى وأنام لفترة طويلة بلا أحلام .. »

لم يكن يصغى لى .. كان ينظر إلى ما وراء كتفى ثم صاح فى مرح :

ــ « باولا !!.. »

نظرت خلفى فرأيت شمسًا أرجوانية تتحرك .. موشكة على أن تحرقنا ..

-4-

قالت باولا :

ـ « ســوف أمنحــك النســيان .. فقــط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

هناك فى الشرفة التى تطل على الحديقة الخلفية ، كان الأطفال الكاميرونيون يلعبون .. إنهم أطفال الجيران طبعًا ، ولهذا سمح لهم باللعب ليلاً فى هذا الظلام .. هناك طائرة ورقيةً وصيحات ، وأحدهم يختال بدراجة صغيرة كأنه يركب سيارة رولز رويس .. هناك سحر خاص فى الأطفال السود لا أعرف مــا هــو ، لكــن الأطفال البيض يفتقدونه ..

فى هذه الظلمة يصعب أن ترى أى شــىء بوضــوح ســوى أشباح زرقاء أو كحلية .. لا يوجد قمر ولا نجوم .. هناك غمامة سوداء تظلل السماء كلها ..

دنت منى باولا .. ووقفت جوارى .. قالــت بلهجتهــا شــبه الإيطالية :

ـ « أنت غارق فى حفرة عميقة .. أراك فى الظلام تتحــسس الجدران بحثًا عن مخرج ، لكنك لا تجد .. تصرخ لكنه كابوس .. لا أحد يسمعك ولو سمعك أحد فلن يعرف ما يفعل .. النتيجة أنه سيتركك ويرحل .. »

قلت وأنا أراقب لعب الأطفال :

ـ « ليس الأمر بهذا التعقيد .. هناك مشكلة عابرة فى حياتى ولسوف أتغلب عليها .. أحلها أو أنساها أو أتجاهلها .. مــررت بهذا الموقف مرارًا .. »

ـ « ليس وأنت فى هذه الحالة .. ليس وأنت فى هذا الحالة .. »

كنت مرهقًا وبحاجة للراحة .. كنت متعبًا من الترحــال ومــن كثرة ما عرفت من وجوه وواجهت من صعاب... كنت هــشًا .. فى هذه اللحظة بالذات جاءت المشكلة .. هذه كانت القشة التــى قصمت ظهر البعير كما تقولون معشر العرب ..

لهذا انهرت .. لهذا تهشمت .. لهذا انقصم ظهرك ..

أنت مفعم بالتساؤلات عن نفسك .. عـن الآخـرين .. عـن قراراتك .. عن ماضيك ومستقبلك .. هل أصبت عنـدما ولـدت مصريًا ؟.. هل أصبت عندما درست الطب ؟.. هل أصبت عنـدما اخترت اسم (علاء) ؟.. هل أصبت عندما اخترت هـذا الوجـه وهذا الأنف ؟.. هل أصبت عندما جئت هنا ؟.. هل أصبت عندما قبلت أن تتكلم معى ؟

★ ★ ★

باولا .. صديقة قديمة لـ (ماكفلاى) ..

من أصل إيطالى ...صحفية ورسامة وأديبـة .. اختـارت أن تظل هنا إلى الأبد ، لكنها تقيم فى العاصمة (ياونـدي). منـذ أعوام لم تأت إلى هذه الحانة البائسة ...

جميلة ؟.. لا .. نحيلة جدًا ولها شعر منكوش مجنون يتطاير فى كل اتجاه ، ولها وجه عظمى فيه لمسة رجولية. قليـل مـن الرجال من ينجذب لقلم رصاص كهذا .. لها أسنان حـادة مـشرشرة وحنجرة بارزة على شكل تفاحة آدم ، كأنها لم تسمع قط أن تفاحـة آدم لا تبرز فى النساء. ثم أنها تلبس ذلك الحذاء الغلـيظ الـذى يذكرك بأحذية الجنود ، وأنا لا أطيق فتاة تلبس هذا الحذاء ..

لكنها كانت مهتمة بأمرى لدرجة تثير الضيق .. أريد أن أترك وشأنى ، لكنها من الطراز الذى يظل يرمق وجهك مدققًا ويقول :

ــ « أنت تدارى غابة كثيفة من الأحزان .. »

إلى آخر هذا الهراء ..

كانت مصرة على استجوابى كأى وكيل نيابة يجيد عمله ، ولم أكن أريد الكلام. طبعًا كما هى العادة انسحب (ماكفلاى) لأنـه وجدنى مملاً جدًّا ..

كانت تضغط على أعصابى بقوة ..

وعندما فررت إلى الشرفة كانت خلفى .

قالت لى بطريقة منومة :

ــ « تعال معى وكن كطفل لا يعرف ما تريد أمه .. »

وأمسكت بيدى .. وفى رفق جرتنى وراءها .. لماذا أطيعهـا كأننى حمل وديع ؟

كان الصخب شديدًا بالداخل وقد بدأت السماعات تهدر .. وكان البعض يرقص بلا براعة .. رائحة الخل هذه فى الجو .. هل هو عرق ؟

هناك هذا الممر الضيق الذى يسده ستار من الخرز المصفف بعناية ..

فى النهاية هناك غرفة صغيرة فى حجم كشك السجائر ، وكانت هناك أريكة من الطراز الذى يصلح لأن يوضع فى كشك سجائر .. على الجدار قطعة من جلد نمر وقناع أفريقى . أشارت لى كى أجلس ..

لا أريد .. أريد العودة لبيتى .. أنا الآن طفل مذعور .. لقد نفذت ما قالته لى وصرت طفلاً . أريد البيت ..

من مكان ما ظهر وجه ألبرت المبلل بالعرق الذى يلمع فى الضوء :

ـ « باولا .. هذا الفتى ليس من ذلك الطراز .. »

هزت رأسها وهى تنظر لى فى ثبات ، وقالت وهى تحرك تفاحة آدم فى عنقها :

ـ « أعرف .. لكن أرجو أن تحتفظ بتصنيفاتك لنفسك يا ألبرت .. »

شىء غريب .. أشعر بإرهاق شديد وغثيان وقد تخلت ساقاى عنى .. أنا لم أشرب سوى اللبن ، فهل يضعون فيه شيئًا ؟.. مثل ذلك الخشاف فى قصة (عزيز نيسن) الذى قدموه للشيخ التقى ممزوجًا بالفودكا ... النتيجة أن الشيخ تحول إلى بلطجى وأغلق حانات كاملة وكاد يفتك بفتوة المنطقة ..

رأسى يدور بحق ... لا أملك القدرة على الاعتراض أو المقاومة .. ربما أنا أموت ؟.. ما زلت صغيرًا نوعًا ، لكن لابد من أن يموت المرء فى لحظة ما ...

ألبرت قد توارى ، وإن بدا واضحًا أنه غير راض عما يدور هنا ..

مدت باولا يدها فى صدرها وأخرجت كيسًا صغيرًا من السيلوفين .. كيسًا يبدو أنه ممتلئ بأشياء ليست نقودًا على كل حال .. فتحته فى بطء وهى تنظر لى ثم قالت بصوتها المنوم :

ـ « يطلقون عليه فى ياوندى (الشمس الأرجوانية) .. لا أعرف سبب التسمية ، لكنك قد تعرف .. إننى أدعوك لهذه الرحلة .. سوف تكتشف الكثير عن نفسك والآخرين .. »

قلت بصوت مكتوم :

ـ « مخـــ .. مخدر ؟.. »

لكن شفتى لم تنفتحا ... كنت أتكلم للداخل ..

★ ★ ★

الشمس الأرجوانية ..

تحرق العينين فتمنحنا لذة ألا نرى ....

★ ★ ★

فى اللحظات التالية صبت باولا الشمس الأرجوانية فى أعماقى ..
وانطلقتُ فى رحلة كونية مجهولة ..

لكن الطبيب ظل متيقظًا بداخلى يراقب .....

رقصـة الشيطان

هناك كان البدائيون فى أمريكـا الجنوبيـة ، يرقـصون فـى الأحراش ثم يهرعون إلى الأشجار ، يقطفون منها تلـك الأوراق ويمضغونها . عرفوا أنها تذهب عن المرء متاعبه الثقيلة وتفقده الحس .. فى بيرو تجد آثارًا على الجدران تؤكد أنها كانت مخدرًا معروفًا قبل الجراحة ..

عرف الأوروبيون هذا النبات واستطاعوا أن يفصلوا المـادة الفعالة التى تحمل اسم (إرثروكزيلين).. ولفترة طويلة لم يكـن لها اسم آخر ..

★ ★ ★

باولا كانت تعرف كيف تزيل آلامى ..

ما دسته فى دمى جعلنى أنسى.. ولساعات شعرت بأننى نشط جدًا خفيف جدًا .. لا توجد أعباء فقد ذابت .. لا توجد هموم فقد رحلت ....

الشمس الأرجوانية تسطع فى الأفق ...

إنها تتسرب إلى داخلى فتذيب الخوف والمرض والقلق ..

تقول باولا :

ــ « هل رأيت ؟.. أنت وثقت بى فتلقيت مكافأتك سريعًا .. »

كان قلبى يدق بلا توقف .. أنا لست خائفًا من الغد ولا اليــوم ولا أذكر شيئًا من الماضى . الحاضر؟.. إنه يتحول إلى ماض فى ذات اللحظة التى نقول فيها هذه الكلمات ..

الشمس الأرجوانية ..

لأنه هناك فى فجر التاريخ ، جلست الجبال فى وضع الاحتباء ، وراحت تدق النسيان .. تدقه بلا توقف لتحيله مسحوقًا ناعمًا ... كومة عالية من النسيان راحت ترتفع وترتفع ...

جاءت النسور تحلق ، فرفرفت بأجنحتها وولدت العواصف .. العواصف بعثرت مسحوق النسيان فى كل صوب .. نسيت الجبال أنها حية وأنها قادرة على الحركة ، ونسى البشر أنهم تعساء . فقط لم يبلغ المسحوق الكهوف .. وأنا كنت فى كهف من الكهوف فلم أنشق المسحوق .. لم أنس .. لهذا أنا تعس .. لهذا أنا أتألم ..

وبدأت أعوى فى حزن .. الدمع يسيل على خدى بلا توقف كأنــه شلال ، والشلال سوف يغمر الوديان ويغرق الكلأ والغابــات ... الوعول ستموت غرقًا ...

أعطينى المزيد حتى لا تموت الوعول ....

حتى لا تموت ...

★ ★ ★

وعندما خرجت إلى الحانة رأيت البشر الذين نسوا أنهم تعساء ينظرون لى ..

أسمع فى أذنى طبول البامباس فى غابات الأمازون .. لابد أنه منها ولدت رقصات السامبا والكونجا .. لا .. ليس الكالبــسو .. لابد أن الكالبسو جاء من جزيرة ما ..

قلبى يتواثب بلا توقف ..

هكذا وجدت أن فى أعماقى طاقة هائلة لابد من أن أخرجهــا بأى شكل .. رفعت ذراعى وبدأت أرقص على نغمات الموســيقا. موسيقا خافتة كانت ، لكنى كنت أسمع الطبول عاليــة جــدًا ... طبولاً تأتى من داخلى لا من الخارج ..

بدأت أرقص .. أرقص ... وقد أضفيت على رقصتى حركـات طريفة من رقصنا الشعبى ، لأنى علمت أن أحدهم لم يرها مـن قبل .. كانت هناك مكنسة جوار الجدار فأخذتها وجعلـت منهـا عصا ، ورحت أتبختر كأننى ألعب التحطيب فى عرس ريفى ..

بدأ الجالسون ينهضون ..

حرارتى لسعت الجليد المحيط بهم ، فالتفوا حـولى وراحـوا يصاحبون حركاتى بالتصفيق الموقع ، وسمعت أحدهم يقول :

ـ « يبدو أن مزاجه عال He's high ... »

كانوا يضحكون .. معظمهم وضع لفافة التبغ فى فمه ليصفق بكفيه معًا ..

ومن مكان ما ظهرت باولا تحمل وشاحًا أبـيض ، وراحـت تلتف حولى كالأفعى محاولة أن تطوق خصرى بهذا الوشاح ...

كانت مغمضة العينين تقريبًا وهى تتحرك تلك الحركة الموقعة ، ناقلة حذاءها الضخم على الأرض .. لو داست قدمى لهرستها .. تفاحة آدم ترتفع إلى عنان السماء ثم تهبط إلى أستراليا ..

أرقص ...

أرقص ..

ومن مكان ما وسط الغيوم ووسط غابـات الأمـازون ظهـر (ماكفلاى) .. كان وجهه محتقنًا يوشك الدم على أن يتفجر منه ..

كان يصفق بدوره ، لكنه همس فى أذنى وهو يفعل :

ـ « أنت فى مزاج عال جدًّا ... ماذا قدمتَ لك ؟ »

ـ « لا أدرى .. »

ـ « إذن أرى أن نرحل .. »

وجرنى من معصمى نحو الباب بينما أنا أضحك بلا توقف ...

أدار محرك السيارة الهامد وهو يسب ويلعن ، وقال لى :

ـ « أرجو ألا يرانا رجل مرور الآن ... فما أخذناه باد علـى وجهينا .. لا حاجة لأى تحليل .. »

قلت وأنا أواصل التصفيق مع ذلك اللحن الصاخب فى رأسى :

ـ « لا توجد مشكلة فى بعض المرح .. إن العالم يتغيـر ... الوعول لن تموت .. ولكن الجبال تعبت من وضع الاحتباء ... »

قال وهو يندفع فى الظلام :

ـ « ماذا أخذت ؟ »

الشمس الأرجوانية !... الكثير من الشمس الأرجوانيـة !.. إنها فى أعماقى .. إنها تحرقنـى .. سوف تحرق غابـات

الأمازون كلها ولربما سهول التايجا .. ومن الرمـاد والـدخان سأحلق ....

أنا العنقاااااء !

★ ★ ★

كانت برنادت نائمة عندما دخلت البيت ...

العشاء ينتظرنى على منضدة المطبخ .. مكرونة وقطعتان من البفتيك .. بينما طبقها فى الحوض ما زال يحمل بقايا الصلصة. يبدو الطعام شهيًا ، لكنى لا أرغب .. لا أطيق أن تنـزل لقمـة واحدة فى بطنى ... سوف أفرغ معدتى فورًا ...

هكذا جلست فى قاعة الجلوس الضيقة ورحت أحاول استعادة اللحن ..

لم أكن أعرف أننى سأعجز عن النوم تمامًا وأن أشعة الفجـر ستتسلل لتجدنى أجوب البيت كذلك النمر القلق الذى كـان فـى حديقة الحيوان فى مصر ... يدور ويدور بلا توقف .....

كنت أشفق عليه ولم أعرف أنه سعيد ..

سعيد جدًا .....

لكنى كنت موقنًا من شىء واحد ... أنا لن أرى باولا هذه مرة أخرى ..

أعـراض غريبـة

عندما عدت فى الليلة التالية ، ضحكت باولا كثيـرًا جـدًّا .. كشفت عن أسنانها الشبيهة بالمنـشار.. وارتفعـت تفاحـة آدم كمنطاد نحو السحاب ..

كانت واقفة هناك فى الشرفة ، فلما رأتنى قالت :

ـ « أين صاحبك ؟.. أين ماما ؟ »

لم أرد ..

الحقيقة أننى كنت أدرك يقينًا أننى أتورط .. أخوض أكثر فـى المستنقع ، لكنى شعرت بحاجة شديدة إلى شعور التحـرر مـن الهموم الذى عشته أمس ... بلا عقاقير هذه المرة ...

لكن هل الشمس الأرجوانية عقار ؟.. أنا لم أدخن أو أشم شيئًا على ما أذكر ، كما أن ذراعى خالية من آثار الحقن .. ما أذكره هو الشمس الأرجوانية نفسها تتوهج فتصب نفسها فى دمى ..

هل هذا طريق لإدمان شىء ؟. عقار يتعاطونه بالنظر !..

أنا أعرف العقاقير جيدًا وقرأت عنها كثيرًا .. لا يوجد عقـار اسمه الشمس الأرجوانية . أما عن الإدمان فمن الصعب أن يـتم من مرة واحدة ، وأنا لن أجرب أى شىء هذه المرة ..

جاء ألبرت فنظر لى نظرة العالم بالأمور ، واتـسعت عينـاه الصفراوان وسط وجهه الأسود .. معظم السود بياض عيـونهم أقرب إلى الصفار ، وهذا قد أربك أكثر من طبيب من قبل . وقال :

ــ « كوب من اللبن الدسم ؟ »

ــ « لو سمحت .. »

ثم نظرت إلى باولا بعد ما ابتعد هذا الرجل وسألتها :

ــ « أنت أعطيتنى عقارًا مخدرًا أمس ؟ »

ــ « لماذا تعتقد ذلك ؟ »

ــ « كل هذا الكلام عن الشمس الأرجوانية ، ثم حالـة عـدم التوازن التى مررت بها .. لم أكن على ما يرام .. »

قالت وهى تحرك تفاحة آدم لأعلى وأسفل :

ــ « قلت لك أن تثق بى .. بصراحة .. لو كنت قد شعرت بأننى أسأت لك فلماذا عدت ؟.. أنت عدت لأنك شعرت بأن الأمور أفضل .. لقد انزاح عن كاهلك عبء ثقيل لوقت محدود .. ولهذا عدت .. »

لم أعلق ..

الحقيقة أننى عدت لأننى أدمنت .. ليس الأمر بكامل إرادتى .. ادمنت ماذا ؟.. أدمنت هذا المكان ..

★ ★ ★

قالت باولا :

ــ « سوف أمنحك النسيان .. فقط اغمض عينيك ودع الـشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

لقد ذهبت هناك مرة .. مرتين .. ثلاث مرات .. ربما أربع !

هناك هالة من الغموض تحيط بذاكرتى .. فعلاً لا أذكر الكثيـر .. هناك جو مبهم ... يمكن فقط أن أتذكر أننى ذهبت هناك عدة مرات . وفى كل مرة كنت أقنع نفسى أننى أغير الجو وأن تسليتى بريئة ...

أعتقد أننى فى تلك الفترة اللعينة لم ألتهم من الطعام ما يأكله عصفور يحترم نفسه. لو تذكرت شيئًا فهو فقدان تام للشهية .. كأن تناول الوجبات هم مقيم ..

النتيجـة بدأت تظهر سريعًا هى أن السراويل صارت تسقط .. واضطررت لتسخين مسمار لعمل ثقوب إضافية فى حزامى ..

هناك ذلك التصلب فى فكى .. لا أعرف سببه ..

هل أصبت بالكزاز (التيتانوس) دون أن أعرف ؟

كانت برنادت تراقبنى خلسة .. لم تكن خلافاتنا تسمح بأن تنظر لى مباشرة أو تطيل النظر. فقط كانت تراقب من بعيد ..

وفى ذلك اليوم وقفت تراقب طعام العشاء الذى لم أمسه وقالت فى نوع من الشك :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

نظرت لها .. ثم هززت رأسى :

ـ « بخير فعلاً .. ولا أروع .. »

ـ « فقدان شهية وفقدان وزن .. هالات سود تحت العينين .. تبدو لى مصابًا بمرض عضال .. لولا ما فى ذلك من مبالغة لطلبت منك أن تجرى بعض الفحوص .. »

قلت فى ضيق من هذا الاهتمام :

ـ « لست ممن يكونون فى أسعد حال وأوفر صحة عندما يتشاجرون مع زوجاتهم .. هذا عيب أصيل فى لو لاحظت هذا .. »

كان ردًا لا بأس به ، ولسبب ما وجدته ظريفًا جدًا فرحت أضحك بلا توقف ....

لكن المنطق يمكن أن ينعكس .. إذن أنا من هؤلاء الذين يفقدون وزنهم ويهزلون ويشحبون عندما يتشاجرون مع زوجاتهم .. منذ متى ؟..

على كل حال كما قلت كان بيننا شىء متوتر ، لذا لم تعلق وغادرت المكان ...

يا لهذا الحكاك ...!.. حكاك شنيع فى ساعدى ومعصمى وبطنى .. هل أصبت بالجرب أخيرًا ؟.. ليس المكان عند (مولانجا) نظيفًا لكن ليس لدرجة الإصابة بالجرب بالتأكيد . الجرب يفضل البطن والمناطق الانثنائية ويؤدى عمله بشكل أفضل ليلاً.. دعك من أنه يترك آثارًا واضحة. بالفعل أريد أن أمزق جلدى . لاحظت هذا منذ يومين .. والمشكلة هى أن الهرش لا يُشبع ولا يبعث تلك النشوة المعروفة .

الاحتمالات هى الجرب ... دودة (أونكوسيركا) اللعينة التى تسبب عمى الأنهار ، لكنها ليست هنا على قدر علمى .. اليرقة المهاجرة فى الجلد ... حساسية من دواء ما .. اضطراب نفسى .. أعتقد أن الاحتمال الأخير هو الأقرب

وفجأة راح جرس يدق فى مكان ما من ذاكرتى ....

البق ... بق الكوكايين ..

فقط مدمن الكوكايين يعانى هذا الإحساس المزمن ببق يزحف تحت جلده .. فقط مدمن الكوكايين يعانى تسارع ضربات القلب وفقدان الشهية ... فقط الكوكايين يحدث هذا التنشيط الغريب فى الجهاز العصبى بحيث يرقص المرء ساعاتٍ ولا ينام ليلاً ....

لكن هل يمكن أن يتم الأمر بهذه السرعة ؟

بالطبع لا ..

أولاً أنا لم أتعاط الكوكايين أو أى مادة غامضة بأى طريقة معروفة من طرق التعاطى ..

إن الكوكايين واحد من المخدرات المنبهة للجهاز العصبى .. غالبًا ما يوجد على شكل مسحوق أبيض ، وربما يخلط بشوائب من صودا الخبيز والسكر لزيادة وزنه .. إنه النوع غير النقى الذى يطلقون عليه اسم (كراك) وهم يدخنونه أحيانًا فيحدث أثناء اشتعاله صوت (الكراك) هذا ..

معظم من يتعاطون الكوكايين يتعاطونه عن طريق الشم.. السينما جعلت هذه الطرق مألوفة للجميع .. الأنبوب الدقيق

والمرآة والموسى ... إلخ .. وهذه الطريقة مشهورة بأنها تحدث ثقبًا فى الحاجز الأنفى .. أى أن الرجل يصير بتجويف أنفى واحد وليس اثنين. لكن هناك من يدعكونه عبر اللثة . هناك من يلفونه فى ورقة رقيقة ويبتلعونه ويسمون هذا (قنبلة الجليد). هناك طريقة التدخين .. وهناك الحقن ...

الغربيون يخلطون الكوكايين بالهيروين فى حقنة واحدة هى (السبيد بول) وهى خطرة جدًا .. لا يجب أن تكون كيميائيًا حيويًا كى تدرك أن هذه الحقنة خطرة ..

أنا لم أتعاط شيئًا من هذا ...

لكن الأعراض ... هذه الأعراض ....

كم من المخدرات يسبب فقدان شهية شديدًا وشعورًا ببق تحت الجلد ؟

* * *

لو كنت قد شعرت بأننى أسأت لك فلماذا عدت ؟.. أنت عدت لأنك شعرت بأن الأمور أفضل ..

* * *

أنا لست مدمنًا لأى نوع من المخدرات .. أنا مدمن للجو عند (ألبرت) ... إنه يريحنى .. ولهذا أعود ، برغم أننى لا اطيق النظر فى وجه باولا الذى يذكرنى بوجه حصان ....

لهذا خرجت من جديد فى المساء ، ولهذا استقللت سيارة أجرة إلى تلك البقعة المنعزلة خارج (أنجاونديرى) . لو عرف (ماكفلاى) أننى أذهب هناك بهذه الكثرة دون أن أخبره لأصابه الذهول .

★ ★ ★

قالت باولا :

ـ « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان و عن الفهم .. »

المقاعد المجنونة

غسلت وجهى بالماء البارد مرارًا .. وشربت كوبًا هائل الحجم من القهوة السوداء .. ثم قمت بتمشيط شعرى محاولاً ألا أضايق ذلك الشيطان الجالس هناك متربعًا يرمقنى ويضحك ..

قال لى وهو يتمسك بخصلتين حتّى لا يقع :

ـ « لو كنت مكانك لاستعنت ببعض كريم الأساس .. هذه الهالة السوداء تحت عينك غريبة الشكل فعلاً .. »

ـ « ومن أين كريم الأساس ؟ »

ـ « لابد أن عند زوجتك بعضه .. »

قلت فى كبرياء :

ـ « برنادت لا تضع مساحيق أبدًا .. هذا هو جمالها الطبيعى .. »

ونظرت لنفسى فبدوت أفضل .. الشيطان يتمسك بشعرى محاولاً ألا يقع .. تذكرت الفأر الذى يقود عملية الطهى ويتحكم فى الطباخ من شعره فى فيلم (راتاتويى Ratatouille) فضحكت كثيرًا .. ضحكت حتى صارت ضحكتى رفيعة غريبة كأنها امرأة مائعة تضحك ...

غادرت المسكن قاصدًا مكتب المدير ، حيث يجتمعون لمناقشة قضيتى ... الآن ... الآن ... التاسعة صباحًا ...

السماء غريبة اليوم .. إنها خضراء تمامًا ...

رفعت رأسى ورحت أرقب ما يدور فـى دهـشة ... سـماء خضراء !.. لقد بلغ التلوث درجة غريبة .. سوف تبدأ الضفادع والديدان تنهمر ... غطوا أطباق الحساء يا شباب .. لا نريد أن تمتلئ بالضفادع .. الويل ... الويل .....

كان (بسام) قادمًا فوق سحابة وهو يبعثـر الأزهـار فـوق رءوس الجماهير .. يضع إكليل غار .. لابد أن هانيبال انتـصر على روما . إن هانيبال هو جده كما تعلم .. جد كل تونسى فـى الواقع ..

قال لى وهو ينتفخ وينز :

ـ « إنهم يبحثون عنك .. الساعة الثانية عـشرة !. المـدير غاضب جدًا .. »

قلت له فى حيرة :

ـ « لقد خرجت التاسعة إلا الربع من مسكنى .. مستحيل أن أستغرق ساعتين وربعًا للوصول هنا .. »

ثم رحت أترنم :

ـ « سيدى المنصور يا بابا .. سيدى المنصور يا بابا .. »

وهى أغنية من التراث التونسى تناسب الموقف .. ظل يرمقنى فى حيرة ولا يجد ردًا ..

دخلت إلى مكتب المدير ..

كانت السكرتيرة تنظـر لى فى دهشة .. لم تتسرب الـسماء الخضراء هنا لحسن الحظ ... يمكننا شرب الحساء ..

أشعر أن حرارتى عالية .. أنا ألتهب ... أنا أحرق ...

أما الأغرب فهو أن (أونوابا) كانت هنا ...

رشيقة جميلة نظيفة كغزال خرج من الدغل ، فماذا جاء بهـا من جنوب أفريقيا ؟... شىء غريب فعلاً ... والأغرب أنها بدأت ترقص ... ترقص كقبائل الزولو .

لعل المدير أعد لى مفاجأة .. أتمنى أن أرقص معها لكن هـذا سيكون غريبًا .. اكتفيت بأن حييتها بهزة رأس ودخلت إلى حيث كان باركر وبارتلييه فى انتظارى .. وكانت معهما مسئولة الأطباء (مارجو) وهى أمريكية ..

قال بارتلييه فى مودة :

– « مرحبًا يا علاء .. أرجو أن تجلس .. لقد وصلنا إلى قرار بصددك .. »

اتجهت إلى مقعد لأجلس .. لكن ...

منذ متى جنت مقاعد هذه الغرفة ؟.. المقاعد تجن أحيانًا لكن لماذا هذه اللحظة بالذات ؟.. إنها ترتفع وتدور حول نفسها ثم ترتطم ... هناك مقاعد عدوانية نوعًا لا تكف عن توجيه الضربات لما حولها . هناك مقاعد خجول تلقت ضربتين فتكومت تبكى عاجزة عن عمل شىء ..

كيف أجلس ؟

قال د. بارتلييه :

– « هلا جلست ؟ »

قلت فى ارتباك :

– « فقط عندما تتوقف المقاعد عن ...... »

لحسن الحظ لم يسمع أحد ما قلت لأن (مارجو) كانت تنظر لى متفحصة ثم قالت لـ (باركر) فى شفقة :

– « يبدو أن الموضوع أرهقه نفسيًا .. إنه ناحل جدًا .. »

قال بارتلييه وقد اكتسب طريقة طلقة متفتحة :

– « لقد قررنا ألا نفعل أى شىء على الإطلاق .. أنت عنصر نشط أمين هنا ، ونحن لا نريد أن نعاقبك... لكن لنعتبر هذه سابقة خطرة .. »

كان أحد المقاعد يطير جوار رأسه تمامًا ، لكنه لم يتحرك ولم يبد ملاحظة .. بل أضاف :

– « واضح تمامًا أنك مرهق . لهذا أقترح أن ترتحل إلى ياوندى بعض الأيام .. إنها مدينة لا بأس بها"

قلت وأنا لا أعرف لماذا قلت ذلك :

– « ألن توجه لى اللوم ؟ »

– « على الخطأ المهنى ؟.. نحن نفعل ذلك فعلاً .. »

– « بل على التأخير .. موعدنا كان التاسعة صباحًا .. »

نظر لمن معه وطقطق بلسانه (توت توت) ثم قلب يده وقال :

ــ « واضح فعلاً أنك لست على ما يرام .. لقد وجهنا لك اللوم فعلاً وقلت إنك أصبت بمغص كلوى فى الصباح منعك من الالتزام بالموعد ! »

هل ذكروا هذا ؟.. وهل قلت أنا ذلك ؟ .. إن هذا غريب .. متى تم ذلك ؟

قال الشيطان الذى يتمسك بخصلات شعرى :

ــ « صه .. لا تعلق !.. سوف يعتبرونك مجنونًا لو تكلمت ! »

المشكلة هى هذه المناطق المحذوفة بلا توقف من عـالمى .. كأنه فيلم إباحى خرج من تحت قبضة رقيب صارم ... لقد قطـع أجزاء كثيرة جدًا من الفيلم حتى لم يبق شىء تقريبًا .. هل هـو الصرع ؟.. الصرع يحدث شيئًا مماثلاً ومناطق بيضاء فى الذاكرة ..

قال باركر فى شىء من الهدوء :

ــ « يمكنك العودة للعمل من الآن ... »

شكرتهم ونهضت محاولاً أن أتحاشى المقاعد الطيارة .. فــى الخارج كان هناك حفل كامل قد بدأ وكــان عـشرات الراقـصين يرقصون .. أفيال .. حواة ينفثون النار .. كل هذا فــى غرفــة السكرتيرة ..

ما السبب ؟... يبدو أنه يوم فريد من نوعه ..

اتجهت إلى الباب وأنا أهتز مع موسيقاهم على سبيل المجاملة .. من الوقاحة أن يعزف هؤلاء أمامك وأنت لا تبدى أى اهتمام بهم ...

السماء ما زالت خضراء ..

وقفت أنظر لها متسائلاً عن هذه الظاهرة الغامضة .. نظـرت لها ربع دقيقة أو أقل ..

لما نظرت لساعتى وجدت أنها الثالثة بعد الظهر !

هل يعنى هذا أننى نظرت للسماء ســاعتين ونــصف ســاعة تقريبًا ؟

هناك شىء غريب يدور هنا ...

★ ★ ★

هارى كريشنا .. هارى راما ...

★ ★ ★

لن أذهب ثانية ... لن أذهب ثانية ولن أرى باولا أبدًا ...

كانت الكلمة التى تتردد فى ذهنى طيلة الوقت هى إل إس دى LSD .. عقار الهلوسة .. ليزرجيك أسيد داى إثيل أميد .

هارى كريشنا .. هارى راما ...

العقار الشائع لدى شباب الهيبز .. عندما كانوا يمـشون فـى الشوارع حفاة صلع الرءوس يرددون مرارًا لا حصر لها : هارى كريشنا .. هارى راما[*] ...

يوجد هذا العقار على شكل مسحوق أو قوالب كقوالب الـسكر أو قطرات .. فى مصر ظهر على شكل صمغ على طوابع البريد ، وكان يتم تداوله بهذه الطريقة ، واستعماله يتم بلعق ظهر الطابع .. من الطرق الشائعة كذلك أن يبلل به ورق (البلـوتر) الخـاص بالكمبيوتر ويوزع بهذا الشكل ..

إنه من أسرة مختلفة تمامًا فى عائلة المخـدرات الرهيبـة .. أسرة عقاقير الهلوسة . عقار صناعى بالكامل ، وهـو يخـرب التوصيل الكيماوى فى المخ تمامًا ...

يسمون التعاطى بـ (الرحلة) . الهلوسة جزء أصيل من عمـل هذا العقار .. هبوط فى ضغط الدم ... تصلب فى عضلة الفك ..

رجفة .. إرهاق .. ارتفاع فى الحرارة .. فقدان الوعى بمرور الوقـت تمامًا .. الفـلاش باك ورؤية مشاهد كاملة من الماضى أو من تجارب التعاطى السابقة .....

(*) أسماء آلهة هندوسية ... هارى هو الإله فشنو .. ثم كريشنا .. ثم راما ..

أعتقد أننى تحت تأثير هذا العقار ..

هناك شىء آخر مهم .. من الأعراض الشائعة لهـذا العقـار التحديق الطويل فى قرص الشمس حتى تحترق الشبكية ... إيذاء النفس عنصر ضرورى فى إل إس دى .. لهذا عنـدما يتعاطـاه ثلاثة يتركون واحـدًا منهـم بلا تعـاط .. الفـكرة أنه يكـون (حارس الرحلة) ، ومهمته حماية الاثنين الآخرين من إيـذاء نفسيهما أو الوثب من الشرفة ...

الفنانون فى الخارج يعانون وهمًا مزمنًا أن عقـار ال اس دى مهم لعملية الخلق والإبداع .. أثبتت التجارب أن هذا كلام فارغ . هذا كلام علمى وليس وعظًا تربويًا على فكرة .

الشمس الأرجوانية لا تعمل مثل الكوكايين إذن ..

بل هى تعمل مثل عقار الهلوسة .. ربما كانـت هـى عقـار الهلوسة ذاته ....

هارى كريشنا .. هارى راما ...

باولا ...

هل أنت الشيطان ذاته ؟...

ماذا تريدين منى ؟.. ولماذا أركض أنا نحوك فى كل مرة ؟

أشياء ظريفة جداً

كانوا يقولون فى أمريكا فى تلك الأعوام :

(ال . هـ . أو) قتـل (جى . اف . كى) ، مـن ثم جـاء (ال . بى . جى) ومعه (سى . آى . ايه) و(اف بى آى) .. هكذا هرب الشباب إلى (ال اس دى) ... هذه شفرة سهلة جدًا لو كنت أمريكيًا لأنهم يحفظون تاريخهم جيدًا .. تخيـل أن تكلم أمريكيًا عن عرابى وشجرة الدر وحادث 4 فبراير .. إلخ .. لـن يفهم أى شىء على الإطلاق .. برغم هذا نحن نلوم أنفسنا عندما لا نعرف أن (ال . هـ . أو) هو (لى هارفى أوزوالد). أحيانًا نظلم أنفسنا أكثر من اللازم .

خلاصة اللغز أن (لى هارفى أوزوالد) قتل (جون كنيـدي) من ثم جاء (لندون بى جونسون) ومعـه وكالـة المخـابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى ... هرب الشباب الأمريكى إلى عقار (ال اس دى) .

بدت لى هذه المقولة ظريفة جدًا فرحت أضحك بلا توقف حتى سال الدمع من عينى ..

* * *

برنادت أول من سألنى عن النتيجة وعما قاله هؤلاء السادة ، فقلت :

ـ « سوف يطيرون عنقى فى ميدان عام .. »

وكنت أحاول أن أشد الحزام أكثـر ليتمسك بخصرى .. أن تحتفظ بسراويلك وأنت نحيل أمر صعب فعلاً .. مشكلة أخرى هى أن خاتم الزواج ينزلق ..

قالت لى وهى تضع الأطباق على المنضدة :

ـ « أنت غريب الأطوار فعلاً.. سألت سؤالاً بـسيطًا وأتوقـع إجابة بسيطة .. »

ثم بدأت تصب فى الأطباق حساء الخضر الذى علمتهـا كـى تعده على طريقة أمى .. قلت لها :

ـ « يقول كونفوشيوس : لا توجـد إجابـات بـسيطة لأنـه لا توجد أسئلة بسيطة ! »

قالت فى تهكم :

ـ « لم أسمع أن كونفوشيوس قال هذا .. »

ـ « ولا أنا .. لقد قمت بتأليف هذه المقولة حالاً .. »

ثم انفجرت فى الضحك ... بدا لى الأمر ظريفًا فعلاً ..

أشعر أن رأسى خفيف .. خفيف .... يمكـن أن يحلـق فـى الغرفة. لو قطع أحدهم عنقى لحدثت كارثـة .. سـوف يرتفـع رأسى ويلتصق بالسقف ..

قالتِ برنادت وهى تتناول ملعقتها الأولى من الحساء :

ــ « جولاتك الليلية الغامضة .. النوم حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى .. فقدان الوزن وانعدام الشهية .. لـو كنـا نتحدث عن صبى مراهق لقلنا إنه أدمن مخدرًا ما .. »

مشكلتها أنها ذكية جدًا ... لكن من قال إننى مـدمن ؟.. لـم أسمع من قبل عن مدمن لا يعرف أنه تعاطى أى شىء .....

قلت لها وأنا أبتلع :

ــ « وأنا لست صبيًا مراهقًا لحسن الحـظ . لا أعتقـد أنـك ستتكلمين عن رزمة النقـود التى نقصت منها بعـض الأوراق ، أو تسأليننى عن إصرارى على ارتداء أكمام طويلة .. لا توجـد آثار إبر فى ذراعى .. »

ــ « وثيابك التى لم تعد تبدلها وذقنك غير المشذبة .. كنـت حريصًا على أن ترسم شكل لحيتك بدقة باسـتعمال الموسـى .. الآن تبدو لى كفنان بوهيمى .. »

فنان بوهيمى .. أنا ؟

رحت أضحك .. بدا لى هذا مضحكًا ..

كانت ترمقنى فى دهشة .. بينما كان السؤال يتردد فى ذهنى ..

هذه الحالة من الانبساط والشعور بالرضا عن الكون بلا مبرر واضح .. هل نحن نتكلم عن الحشيش أو الماريجوانا ؟

قائمة طويلة مـن المخدرات تدور فى فلك الحشيش .. نبـات الكانبيس اللعين الذى ابتلعه البشر ودخنوه وحقنوه فـى دمهـم وشربوه مع القهوة فى صورة (المنزول) .. أكثـر المخـدرات شيوعًا وربما أقدمها ..

إن عمله أقرب لتهبيط الجهاز العصبى على عكس الكوكـايين .. وهو كذلك يولد بعض الهلاوس ..

هل ما أعطتنى إياه هو الحشيش ؟ ولكن كيف ؟. كيف لى أن أدخن الحشيش أو أبتلعه من دون أن أتذكر شيئًا ؟

هناك هلاوس فى القصة .. لكن الحشيش فى جرعات كبيرة يسبب الهلاوس فعلاً .. تأثيره أحيانًا يكون عنيفًا وليس مجرد هذا الاستعداد للمزاح الذى يصفونه فى النكات ، على غرار (هع هع هع !) ..

ثمة مشكلة هنا ... الأمر غير متسق .

1 ــ ما نوع المخدرات الذى يجمع معظم خواص المخدرات الأخرى ؟

2 ـ ما نوع المخدرات الذى يظل فى الدم كل هذا الوقت ؟

لو كان الأمر صحيحًا ، لكان مخدر الشمس الأرجوانية هو المخدر المثالى الذى يحلم به كل تاجر مخدرات فى العالم .. إنه يحقق كل شىء تقريبًا ويدخل من يتعاطاه فى شتى الأمزجة والهلاوس ... إنه يبقى فى الدم طويلاً جدًا ويبدو أن له طرقًا عدة للعمل .....

بدأت أشعر بذلك الهاجس الذى أعرفه ويسبب لى صداعًا فى مؤخرة الرأس ...

هل الشمس الأرجوانية عقار تجريبى ؟.. مخدر تم تركيبه فى المختبر على غرار ال اس دى ؟.. وعندئذ تكون (باولا) مكلفة بتجربته على عدد من البلهاء ... هل هذا ممكن ؟

ولو كان هذا صحيحًا فكيف أفلت من هذه القبضة الشيطانية ؟

برغم أننى كنت غارقًا فى التفكير فإننى رحت أضحك بلا توقف .. لقد بدا لى هذا كله ظريفًا جدًا .. ضحكت حتى آلمتنى بطنى ... إن الحياة مليئة بالدعابة فعلاً ... من العسير ألا تضحك طيلة الوقت ...

هى هى هى !..

شمس أرجوانية !... اسم مضحك فعلاً ..

فان جوخ العزيز

قالت باولا :

ـ « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

لا أدرى كيف مر بى أول يوم من عودتى للعمل..

للحظات كنت أشعر بأننى أفقت ، وكنت أشرب الكثير من القهوة .. ثم قررت أنها عقار آخر منشط للجهاز العصبى .. لا داعى للمزيد من العبث بهذا المسكين ..

كنت فى قسم الجراحة ، وقد كان على أن أعاون طبيبًا نرويجيًا فى جراحة غدة درقية. لا بأس .. إن جو قسم الجراحة وغرفة العمليات يعيدان لى الحيوية ..

هكذا وقفت أنظر إلى الجرح فى عنق المريضة بينما الجـراح يلاحق الأوعية الصغيرة النازفة . الغدة تظهـر للعيـون كأنهـا أخطبوط شرير كان نائمًا فى الأعماق ..

فجأة شعرت برغبة عارمة فى القىء ..

أريد أن أفرغ معدتى .. ليس هذا هو الوقت ولا المكان .. لكن الرغبة كاسحة ...

أشعر بمحتوى معدتى يتسلق ..

ما السبب ؟.. ليس الاشمئزاز من الأخطبوط فقد رأيته عشرات المرات من قبل. يمكن القول إن منظـر الدم يريحنى كأى جراح أو سفاح يحترم نفسه .. رحت أبتلع ريقى وأشهق أملاً أن يهدأ العصب الحائر ويكف عن الحيـرة أو ينـام قليلاً... مستحيل أن أفعلها هنا .. مستحيل ...

كانوا يقولون إن فـن الغنـاء يعلم الناس كيف يكفون عـن السعال .. أعتقد أن الجراحة تعلم الناس كيف يكفون عن القىء ..

طلب منى أن ألتقط طرف الخيط ..

مددت يدى بالمبضع لكنه ـ المبضع ـ راح يرتجف بلا جـدوى .. المبضع يتحرك بجنون فى كل مكان ، لكنـى لا أسـتطيع أن ألتقط طرف الخيط .. لم أرفع عينى لكننى سمعت الجراح يقول :

ـ « ما بالك ؟ »

أذناى تحمران من الخجل تحت القناع ..

ـ « هل أنت على ما يرام ؟ »

ـ « لا .. »

وهنا نجحت فى اقتناص الخيط فرفعته .. وتنهدت الـصعداء. لكن رجفة عنيفة أصابت يدى من جديد ..

قال لى وهو يكوى بعض الأوعية :

ـ « انصرف .. أنت فى حالة لا تسمح بالاسـتمرار .. قـل لشارل أن يبدأ التعقيم حالاً .. »

هززت رأسى ولم أرد أن أجادل ..

مشيت نحو الباب ، وهنا بدأت ساقاى تلتفان .. مشيتى ليست على ما يرام ..

قال دون أن ينظر لى :

ــ « هل تتعاطى عقارًا ما ؟ »

قلت دون أن أنظر له بدورى :

ــ « بالطبع لا .. »

ــ « إذن حاول أن تظفر ببعض النوم ... صدقنى مكانك ليس هنا .. »

خرجت إلى الحمام الذى نستعمله للتعقيم ، ففككت تعقيمـى .. بالطبع لم أخبر شارل بشىء لأننى نسيت كل شىء بمجرد خروجى .. ثم من هو شارل أصلاً ؟؟

أول ما فعلته هو أننى جريت إلى دورة المياه فأفرغت معـدتى .. كانت فارغة أصلاً فلم أر إلا عصارة معدية صفراء ، ثم رحـت أجاهد وأشهق .. أشهق ... إلى أن تمكنت من أن أدفع شمـسا أرجوانية محشورة إلى الخروج. الشمس الأرجوانية سقطت فى مياه المرحاض فتفتت إلى مئات الشموس كلها تشع فـى وقـت واحد .. لو دخل أحد فى هذه اللحظة لأصابه الرعب ..

عندما خرجت من المرحاض غسلت وجهـى بالمـاء البـارد وشعرت بأننى أفضل ..

ثم نظرت لوجهى فى المرآة ..

لا شك فى هذا .. إن حدقتى ضيقتان تمامًا .. ضيقتان كأنهما رأسا دبوسين ...

★ ★ ★

هناك فى موضع ما مـن أفغانـستان أو بورمـا ، أو مكـان ما غامض تحرسه ميليشيات قاسية ..

الثمرة المميـزة .. ثمـرة الخـشخاش العجيبـة .. بابـافر سومنيفيرام .. إنها تبدو جميلة .. لا تبدو بهذا الخطر أبدًا .

فان جوخ رسم أزهار هذه الشجرة لأنها فتنته..

عندما تجرح هذه الثمرة غير الناضجة فهى تنز دمًـا .. هـذا الدم يشكل ثروة معظم تجار المخدرات فى العالم ، لأنه يحتـوى المورفين والكودايين ــ كلاهما مانع سعال قوى ــ والنارسـين والبابافرين ..

هناك صيدلى عديم الضمير علم المدمنين أن أدوية السعال تحتوى كمية لا بأس بها من الكودايين ، ومن هنا بدأ الداء اللعين .. عندما ترى زجاجات أدوية السعال الفارغة ملقاة فى الشارع صباحًا ، تذكر أنك ترى إدمان الكودايين بعينك. المشكلة هى أن تجارة المخدرات تمشى خطوة بخطوة مع علم الأدوية ، لهذا لا يكفون عن اكتشاف أشياء جديدة ..

الحدقة الضيقة .. حدقة تشبه رأس الدبوس ..

إنها مميزة جدًا للمورفين ..

المورفين ينشط مركز القىء .. لكنه فى الوقت ذاته يحبط الإحساس بالألم والتنفس .. كل من ماتوا بالمورفين ماتوا لأنهم لم يعودوا يتنفسون ...

الرجفة .. المورفين يسبب الرجفة ...

يعرف خبراء المخدرات كيف يغلون المورفين مع حمض الخليك بطريقة معينة للوصول إلى الهيروين ... الهيروين الذى هو أقوى من المورفين مرتين ..

لهذا فالاسم العلمى للهيروين هو (داى اسيتايل مورفين) .. ثنائى خلات المورفين لو كنت تهوى الكيمياء بالعربية. لكن الهيروين لا يعمل على المخ إلا بعد ما يتحول إلى مورفين أولاً ...

الملعقة والمحقن ..

الملعقة المليئة بالمسحوق الأبيض مع قطرات من الماء وقطرات عصير ليمون كحمض ، بينما يسخنونها بعود ثقاب ثم يملئون المحقن ويتسرب السائل الخطير إلى الأوردة .. البعض يأخذ الهيروين تحت الجلد .. المهم أن المدمنين ليسوا أحرص الناس على القواعد الصحية ، وغالبًا ما يتم استعمال نفس المحقن .. لهذا نسمع لفظتى الإدمان والإيدز فى نفس الوقت ونفس الأماكن تقريبًا .. هناك من يفضلون الشم على طريقة الكوكايين ..

إنه عقار خطر وتأثيره على التنفس بالغ. لهذا استخدمه قتلة كثيرون ممن يملكون خبرة طبية.

الشمس الأرجوانية تتصرف مثل المورفين أو الهيروين ....

هذا مؤكد ...

ـ5ـ

قد صار مظهرى رائعًا ...

لو أنك رأيتنى لما عرفتنى ..

الغريب أننى كنت أعتقد أن هذه التغيرات تحدث للناس بعد أعوام من التعاطى ، لكن القصة بالنسبة لى لا تتجاوز أسابيع ثلاثة ...

هالات سوداء داكنة تحت عينى .. نظـرة زائغـة مرهقـة .. الشحم فى رقبتى قد ذاب لذا تحول الجلد إلى شىء مجعد يذكرك بالأوكورديون ، والحزام المعقود حول خصرى يوشك علـى أن يقابل طرفه الآخر .. بمعنى أنه لن يكون هناك خصر .. القميص واسع مهترئ .. دعك من الرجفة .. لا يمكن أن أرفع يدى ربع ثانية دون رجفة ..

طبعًا لا أحد يفكر فى التعاطى .. إنهم يفكرون فى أننى مرهق أو مصاب بالسرطان .. أمس قال لى آرثر شلبى وهو يحك شعره الأشيب :

ــ « أقترح أن تجرى فحصًا لدمك واختبار سرعة ترسيب ... إن فى دمك أو عقلك داء عضالاً .. »

قلت ضاحكًا بالفرنسية :

ــ « يا صاحبى .. هو الحب (سى لا مور) .. »

ــ « إذن حاول أن تنقذ نفسك وإلا فلن يبقى لك جسد تحب به .. »

لن أعود إلى هناك .. أعرف هذا ..

باولا حاولت خداعى وأنا عدت كالأبله عدة مرات . لا أعـرف شيئًا عن هذا المستحضر الذى جعلتنى أجربه لكنه قوى وشـديد الكفاءة .. دعك من أنه يظل فى الدم طويلاً جدًا .. ودعك من أنه يتصرف كمعظم المخدرات .. كأنه مخدر ضم كل مخدرات العالم ..

★ ★ ★

لقد وفيت بوعدى ..

عشت يومين منتظمين وكنت أقوم بعملى فى الصباح ، وعندما يأتى المساء كنت أتناول العشاء برغمى .. وبرغم أننى لا أطيق لقمة واحدة منه .. ثم أطلب من برنادت أن تغلق الباب وتحـتفظ بالمفتاح . لن أخرج لأى سبب ، ولو خرجت فلن يحدث هذا دون علمى ...

سألتنى عن السبب .. أعتقد أنها بدأت تستنتج شيئًا فهى ليست حمقاء. لكننى قلت لها إننى أريد أن أبقى فى البيت أطول فترة ممكنة .. لقد اعتدت الخروج ليلاً فى المدة السابقة وهذا ليس مفيدًا لصحتى ...

حرصت على أن أبتلع الكثير من الأقراص المنومة والمهدئات ..

أنا أعرف أن الإدمان الكيميائى صعب جدًّا ، ولابد من عون خارجى .. لكنى كذلك لن أجعل المستشفى كلها تعرف بقصتى .. سوف أحارب على قدمى وأنتصر ..

فى المصحات يتناولون عقار (ميثادون) وهو مخدر خفيف يساعد على سحب المخدر الأصلى .. لكن كيف أظفر به ؟

هكذا أمضيت ليلتى الأولى أقرأ .. ووضعت الشطرنج أمامى مع كتاب للأدوار التاريخية ، ورحت أعيد لعب تلك الأدوار التى لعبها عباقرة الشطرنج منذ مئات السنين .. طريقة ممتازة حتى لا تفكر فى شىء آخر ..

لم أعرف مدى تغلغل العقار فى دمى إلا فى اليوم التالى ...

كنت فى المختبر مع (هيلجا) الشمطاء نقوم بإعداد بعض العينات لسلسلة تفاعل البوليمريز PCR . وكانت كعادتها لا تكف عن توجيه اللوم لى ..

لهذه المرأة وجه مجعد مليء بالقسوة تدعمه عينان زرقاوان لا ترحمان. أشعر أن هذا هو الوجه القبيح للحضارة الغربية .. الوجه الذى كان يلقى بالليبيين من الطائرات ، ويضع أطفال الهنود الحمر فى قيزانات ماء يغلى ، وينشر الجدرى لدى قبائل كاملة فى كويبك ....

بدأت أتثاءب بلا توقف .. كأننى فرس نهر ...

يااااو !.. يااااو !

مع كل مرة تثاؤب تدمع عينى ويسيل الدمع من أنفى ... لكنى فى الوقت ذاته لم أكن فى حالة نعاس .. كنت أقرب إلى التوتر والعصبية.. على قدر علمى لم أر فى حياتى من يتثاءب ويتوتر فى وقت واحد ..

شعرت بأحشائى تتقلص .. يبدو أن هناك إسهالاً قويًا فى الطريق ، لكنى سأحاول التماسك بعض الوقت ..

كل هذا لم يكن كافيًا .. لقد بدأت أشعر بألم عنيف فى ساقى .. ألم يشبه ذلك الناتج عن (ركوب عضلة على أخرى) كما كنا نعتقد فى مباريات الكرة ...

ألم عنيف جدًا ...

إن العرق يغمرنى ... يغمرنى بشدة ...

نزعت القفازين المزدوجين ....

كفاى يسيل منهما العرق ، وعلى الفور انطلق الأنبوب الذى أمسكه كالصاروخ ليرتطم بالجدار ، ولاعجب .. فقد كانت يدى زلقة تمامًا ...

ـ « هل جننت ؟ »

قالتها لى فى عصبية وواضح أن الدم تناثر على صدر معطفها .. لوث أشياء كثيرة جدًا ...

حاولت تجاهلها لكنها قالت وهى تقف متصلبة كأنها جنرال نازى :

ـ « يجب أن تقدم لى تفسيرًا وأن يكون مقنعًا .. »

كنت أرتجف غيظًا .. أرتجف شاعرًا بأننى أنهيت فتيل الصبر الذى لدى ..

قبل أن أعرف ما أفعله قمت بقذف مجموعة أنابيب الاختبار واحدة تلو الأخرى فى الجدار. بقع الدم تتناثر وقد بدا هذا جميلاً لأننى شعرت بأننى أمارس لعبة تصويب ..

لكن ساقى تؤلمنى جدًا .. جدًا ..

أشعر بالكثير من الغبن والظلم فى هذا ..

كانت (هيلجا) ترمقنى بذات الدهشة متصلبة كجنرال نازى ، والعنصرية والمقت فى عينيها .. أعرف أن مشكلتى هى عيناها ..

قلت وأنا أمسك بأنبوب زجاجى مهشم ، بينما العرق يتساقط من جبينى :

ـ « أنت امرأة نازية .. أحمق من يعتقد أن النازية ماتت بعد الهر هتلر .. لو كان حيًا لكنت تديرين أحد المعتقلات ... ولكنى أعرف مشكلتك .. إنها عيناك ..!.. لو فقدت هاتين العينين الزجاجيتين الوقحتين الباردتين ، لصار شأنك ألطف ...! »

واتجهت نحوها فى تصميم ..



-6-

كان المشهد جميلاً ..

أن ترى هذه المرأة المزعجة المتحدية ، وقد تحولت إلى مجـرد أنثى مذعورة تصرخ ، بينما يطاردها سفاح .. بالتأكيد تقول مـا يعادل (يا خراابى) بالألمانية ..

كانت تركض خارجة من المختبر وكنت أنا وراءهـا .. كنـت أعرج بسبب ألم ساقى مما جعل المشهد كأنه من فيلم رعب قديم .. مساعد د. فرانكنشتاين يطارد حسناء ليشرحها ..

لم أكن أنوى عمل شىء بالطبع .. يصعب على المرء أن يفعل شيئًا لا يتسق مع شخصيته حتى وهو غائب عن الوعى ، لكنـى كنت أشعر برغبة عارمة فى أن أثير رعبها .. ليس أجمل مـن رؤيتها تصرخ ..

برغم كل شىء ظل الطبيب فى داخلى متيقظًا .. هذه أعراض انسحاب Withdrawal لا شك فيها .. أعراض التوقف عن مخدر ما .. ربما كان هو المورفين ، فإن موضوع الإسهال هذا يـشير للمورفين بقوة ..

بالطبع لم يتأخر رد الفعل كثيرًا ، قبل أن أجد نفسى بين يـدى ممرضين كاميرونيين قويين ، وقد زود كل منهما برافعة حديدية بدلاً من الذراع ...

من مكان ما ظهر د. جونستون حاملاً محقنًا ...

جثا بجوارى حيث أرغمنى الرجلان على الرقاد على الأرض ، وقال وهو يدس المحقن فى كتفى ؛ لأنه لم يجد أى مكـان فيـه أوردة فى وضع المصارعة الحرة هذا :

ـ « هلم يا دكتور .. هذا مجرد ديازيبام .. سوف تهدأ قليلاً .. »

أعتقد أننى هدأت فعلاً ..

لم أنم .. لكنى دخلت حالة من التأمل الساكن كقدرة زيـت ، حتى خيل لى أننى سأصل إلى سر المادة اللاصقة لأجزاء الكـون بعد قليل ....

* * *

أحب هذه الحجرة ..

الحجرة الهادئة النظيفة خافتة الإضاءة ، حيث تأتى موسيقا باخ من مكان ما . غالبًا من سماعة خلف الأريكة ، المكتبة التى

تحتل جدارًا كاملاً .. أشعر أنها غرفة (النفس) فى سـافارى ، وما زلت أذكر جلساتى الطويلة هنا مع برنـادت أيـام فقـدانها البصر ...

جلس د. جونستون أمامى وراح يمـسح كفـى بقطعـة مـن الشاش المبلل بمطهر . آى !.. يدى تحرقنـى .. لقـد اختـرق أنبوب الاختبار المهشم كل خلية فى كفى ..

قال وهو يتخلص من الشاش :

ـ « يبدو أنه لابد من تحليل الدم الذى كان فى هذا الأنبوب ، وكذا دمك .. لقد فعلت كل شىء ممكن لتصاب بالإيدز .. »

قلت فى لا مبالاة :

ـ « لقد تم فحص العينات التى كانت معى فعلاً ... لا يوجـد إيدز .. »

ـ « هذا خبر جميل .. والآن سأكون شاكرًا لو أصـغيت لـى بضع دقائق ... »

ثم إنه استدار ليجلس على مقعد وثير أمامى ، ونزع جـذاءه ليجلس القرفصاء على المقعد .. هكذا يفعل الأطبـاء النفـسيون

اليوم ليوحوا لك بالاسترخاء.. ثم قال لى وهـو يراجـع بعـض الأوراق :

ـ « هناك تقارير كثيرة عنك .. يقولون إنك تتصرف بطريقة غريبة فعلاً .. هناك نوع من عـدم الثبـات .. عـدم الـشعور بالمسئولية .. رجفة قوية .. نوبات هياجية ...ثم ذلك العـرض الرائع مع دكتورة هيلجا ومحاولة انتزاع عينيها. بدأت التقـارير تتراكم بسرعة ، ويمكن القول إن كل شىء بدأ بعد خطـأ عـابر ارتكبته فى العناية الفائقة ولم يؤد لضرر .. السؤال هنا هـو : هل كل هذا ناجم عن التوتر العصبى ، أم أنـك تتعـاطى عقـارًا بصورة شخصية ولم يصفه لك أحد ؟ »

سألته وأنا أحك عينى :

ـ « هل تقصد أن أكون مدمنًا ؟ »

قال وهو يبتسم :

ـ « لا نستعمل هذه الكلمات القاسية .. »

وهذا ما يثير غيظى فى أطباء اليوم .. علمونا أنـه لا يوجـد (سن يأس) بل (سن أياس).. علمونا أنه لا يوجد (عقـم)

ولكن (نقص خصوبة) .. علمونا أنه لا توجد (ذبحة صدرية) ولكن (آلام صدر قلبية المصدر).. لـم يعـد هنـاك (جنـون انبساطى اكتئابى) ولكن هناك (اضطراب ثنائى القطبية) ..

عما قريب سوف يطلقون على الموت (فقدان اتحاد) علـى طريقة الخواجة هاينلاين فى (غريب فى أرض غريبة) ..

بينما كلانا يعرف المعنى الحقيقى للكلمـات بـدلاً مـن هـذه الزخارف اللفظية ..

قال د. (جونستون) بلهجة من ينوى بدء محاضرة طويلة :

ــ « الإدمان .. التعود .. الاعتماد .. هناك خطـوط واضـحة بين هذه المصطلحات .. على كل حال لفظة إدمان توشك علـى الانقراض لتحل محلها لفظة (الاعتماد على المستحضر) .. »

★ ★ ★

قال د. جونستون :

الاعتماد هو نوع من الاستعمال المتكرر لعقار مـا ، ويمتـاز بخمس نقاط :

1 ــ رغبة كاسحة فى تعاطى العقار .

2 ــ فقدان تأثيره مع الوقت مما يستدعى من المتعاطى زيـادة الجرعة .

3 ــ الاعتماد النفسى والجسدى على تأثير العقار .

4 ــ حدوث أعراض انسحاب واضحة عند التوقف عنه .

5 ــ آثار خطرة على الفرد أو المجتمع .

كلما استعمل المرء العقار أكثر قل التأثير ، وهذا يعنى الحاجة لزيادة الجرعـة . إن من يتعاطـون الهيروويين يضطرون لزيادة الجرعة دون حسابات ، خاصة مع عدم تماثل العينات فى السوق .. هكذا قد يأخذون جرعة عالية جدًا دون علمهم ويموتون .. هـذا هو الــ OD أو (الجرعة الزائدة) .

يختلف التعود عن الاعتماد .. التعود عملية نفسية ولا حاجـة لزيادة الجرعة ولا تحدث أعراض الانسحاب .. الماريجوانا والحشيش نموذج للتعود لأنه لا تحدث لمن يتوقف عن الحشيش أعـراض جسدية مهمة ... الاعتماد هو حاجة جسدية كاسحة للعقار تؤدى للمرض ..

على كل حال يبدأ كل مدمن تعاطى العقار الذى يناسب حالتـه .. لقد أدمن فرويد نفسه الكوكايين ليعالج اكتئابه ، ومـن يمـرون بكارثة قد يدمنون الكحول .. وهكذا ..

فجأة أوقفت هذا الشرح الرائع وسألته بعصبية :

ـ « هل تعرف عقارًا اسمه الشمس الأرجوانية ؟ »

نظر لى فى دهشة ثم قال :

ـ « لا .. لكن ما أكثر أسماء الشوارع للعقاقير .. للماريجوانا عشرة أسماء على الأقل وكذلك الكوكايين .. لكن لماذا تسأل ؟ »

ـ « لا شىء .. رواية قرأتها قديمًا .. تكرم بمواصلة الشرح .. »

حكى لى د. جونستون الكثير من التفاصيل عن (دائرة المكافـأة) و(النظام الطرفى) والدوبامين .. طبعًا كلامى مفعم بالتفاصـيل أصلاً فلن أزيد الأمور تعقيدًا .. لقد فهم العلم الكثير عن الإدمان فعلاً .. يبدو أن فئران وأرانب كثيرة قد صارت مدمنة وهـدمت حياتها للأبد من أجل فهم هذا كله . لا داعى لأن أقول إننى لا أفهـم معظم هذا الكلام أنا نفسى .. هذا من أعقد وأعلى مستويات علم العقاقير وفسيولوجيا الجهاز العصبى والهندسة الجزيئية معًا .

هناك مدرستان لعلاج الإدمان .. المدرسة الأمريكية التى تمنع العقاقير تمامًا ، والمدرسة الأوروبية التى تسمح ببعض التعاطى بشروط .. أى لن تكون هناك جرعات زائدة .. لن تكون هنـاك محاقن مشتركة ملوثة بالدم .. سيتم كل شىء فى النور.. هنـاك برنامج الـ 12 خطوة للإقلاع وهو برنامج شهير جدًا ..

من الغريب أن الوثائق تدل على نجاح البرنامج الأوروبى أكثر !

★ ★ ★

استمرت الجلسة ساعة ..

عندما أنهى د. جونستون كلامه نظر لى باسـمًا وانتظـر أن أتكلم ..

قلت له فى تهذيب وأنا أنهض وأحكم ربط الضمادة على يـدى النازفة :

ـ « شكرًا لهذا الشرح الممتاز .. لكنه كله ينبع من افتراض أننى أتعاطى مخدرًا .. فماذا لو قلت لك إننى لا أفعل ؟ »



— 7 —

لقد حددوا موعدًا آخر للتحقيق معى ..

سوف تقول هيلجا إننى حاولت جاهدًا انتزاع عينيها بأنبوب اختبار .. ولسوف يكون هناك تحقيق طويل. هذه المرة أنا أعرف أنها النهاية . لن يتسامحوا معى مرتين فى شهر واحد ، بعد ما صرت أشكل خطرًا بالفعل ..

من حسن الحظ أنهم لم يحبسونى أو يحددوا إقامتى .. على الأقل هم كرماء فى هذا الصدد .

الأسوأ حالاً كان (برنادت) ..

كانت تبكى وفى حالة سيئة جدًا .. يبدو أنها أحوج الناس لجرعة من أى مهدئ للجهاز العصبى . كانت ترتجف ..

المشكلة هى أن بطنها بدأ يعلو .. فى الحقيقة هذا يضايق تنفسها جدًا . ليس هذا أفضل وقت لتحويل حياتها إلى جحيم ..

— « علاء ... لابد أن أفهم .. أنت تفلت من يدى وحياتنا تنهار بالكامل .. »

لا أنكر هذا .. لا أنكر هذا ..

— « علاء .. لو لم تكن تتعاطى عقارًا ما فأنا لا أفقه شيئًا .. »

أنت ذكية يا فتاة ..

— « بدأ كل شىء منذ تشاجرنا وصرت تخرج ليلاً.. لا أعرف إلى أين تذهب لكنى أرجح أنه أحد الملاهى الليلية .. هناك تعاطى مخدرات أو ما هو أسوأ .. »

أنت دقيقة يا عزيزتى ... لكنك جربت ظلمى من قبل .. ألم تتعلمى شيئًا أو شيئين ؟.. أنا برىء دائمًا .. مظلوم دائمًا .. فى كندا حسبت أننى ذلك الشرقى الأبله الذى رأى الحضارة الكندية فجن وراح لعابه يسيل ، ثم تبين أن هذا أبوك العزيز ..

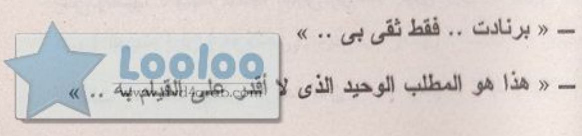
— « يجب أن تتكلم ... أنا أفقدك ببطء ، وعلى الأرجح سيعودون بجثتك ذات ليلة بعد جرعة زائدة .. »

ومن قال إننى سأذهب هناك ثانية ؟

قلت لها وأنا أنهض :

— « برنادت .. فقط ثقى بى .. »

— « هذا هو المطلب الوحيد الذى لا أقدر على القيام به .. »



فكرت لحظة ثم قلت لها :

ـ « سوف أضعك على بداية الخط .. سأحكى لك كيف بدأ كل شىء .. »

★ ★ ★

عندما تأخذ زوجتك عند (ألبرت) فليكن ذلك ظهرًا .. عندما يكون الأطفال فى كل مكان والنسوة جالـسات علـى الـدرجات يطعمن البط أو الماعز .. ولربما تجد بقرة داخل البار ..

لا يوجد سكارى ولا أوغاد ولا مدمنون ولا زناة فى هذا الوقت .. إنهم ينامون قليلاً كى يخرجوا من جحورهم ليلاً ..

برنادت كانت تعرف المكان طبعًا من مغامرتى القديمة مع داء الإيدز .. لو كنت نسيت أو أضعت الكتيب ؛ فلا بأس لكن أعفنـى من سرد القصة مرة أخرى ..

كانت هناك امرأة أفريقية تضع عمامة عالية جدًّا أو منـشفة على رأسها ، وتعد طعامًا شهى الرائحة على الموقد ، فـسألتها عن (ألبرت) أو (مولانجا) ..

قالت إنه ينعم ببعض الراحة الآن .. إنه وطواط لا ينام ليلاً ...

قلت لها وأنا أعد بعض أوراق العملة (فرانكات CFA) :

ـ « فقط كنت سأدفع له لو ... »

رسالة واضحة جدًّا ... اتسعت عيناها ، ثـم تركـت الموقـد ودخلت إلى حجرة داخلية ...

بعد لحظة ظهر (مولانجا) الوغد .. دائمًا هو هو .. الفانلـة الداخلية والكرش والسروال القصير .. يقضى حياته كلها بهـذا اليونيفورم حتى لو أعدموه .. لكنه كان يعلق منـشفة متـسخة على كتفه وكان عكر المزاج . أعتقد أنه سب المرأة قليلاً .

هز رأسه محييًا وقد تذكرنى .

قلت له وأنا أضع أوراق العملة أمامه :

ـ « أين باولا .. الفنانة الإيطالية .. هل ما زالت تأتى ؟ »

هنا حدث ألعن مخاوفى ..

لقد ضيق عينه وراح يحاول التذكر ... باولا ؟.. لا أذكر أحدًا بهذا الإسم .. تذكر قليلاً ... إنها تأتى هنا كل ليلة .. جاءت من ياوندى .. نحيلة .. شعر منكوش .. أسنان بارزة .. يبدو أنهـا توزع مخدرات ..

قال فى ضيق وهو يجفف عرقه بالمنشفة :

ــ « ليس لدى من يوزع مخدرات .. هناك من يتعاطى على مسئوليته الخاصة ، لكن لا أحد يوزع .. دعك من أن فتاة وحيدة لا تأتى عندى ليلاً ما لم يكن معها .. احم ... »

فهمت ...

باولا يا أخى .. تذكر ... مستحيل ألا تعرفها ..

كلامك معها يؤكد أنك تعرفها تمامًا .. لا تحسبن أننى سأقبل هذه الإجابة وأرحل. باولا ملأت دمى بشىء لعين اسمه الشمس الأرجوانية ، وأنا أريد أن أعرف ما هو لأتخلص منه ..

ونظرت لبرنادت .. كانت تنظر لى بمزيج من الشك والشفقة والحيرة والحزن ..

قلت لها :

ــ « برنادت .. أنت تعرفين أننى صادق .. »

قالت وهى تنظر لألبرت :

ــ « هو يبدو صادقًا كذلك !! »

ــ8ــ

هذه المرة هى مشكلتى فعلاً ..

لقد مررت على العنابر وقسم الجراحة ظهرًا فتزودت بما أردت ، وعندما جاء العصر كنت قد غادرت الوحدة. استوقفت سيارة أجرة .. سيارات الأجرة هنا من الطراز الذى نطلق عليه (نصف نقل) ، حيث تركب فى الصندوق الخلفى متظاهرًا بأنك شديد الرقى ..

وبعد قليل كنت أترجل أمام بار أو مقهى (مولانجا) ، وأنا أحمل الكيس الثقيل الذى جئت به ..

لم يكن المشهد قد اختلف كثيرًا عن لحظة مجيئى مع برنادت. والمرأة الأفريقية كانت تعد الطعام وتنظر لى فى دهشة ...

قلت لها من جديد :

ــ « أين ألبرت ؟ »

هزت رأسها فى عدم فهم ، ثم اتجهت إلى الداخل .. بعد قليل عادت ومعها الرجل والمنشفة على كتفه . رائحة النوم تملأ المكان ..

قال فى ضيق كأنه رأى الشيطان :

ــ « اسمع .. يمكنك توجيه أسئلتك ليلاً .. أنت تفسد يــومى بالكامل .. هذه فرصتى الوحيدة للنوم .. »

قلت له :

ــ « أريد مكانًا منفردًا .. يجب أن نتكلم .. »

واتجهت دون كلمة أخرى إلى الممر الضيق الذى يسده ستار من الخرز المصفف بعناية ..

غرفة صغيرة فى حجم كشك السجائر ، وأريكة من الطراز الذى يصلح لأن يوضع فى كشك سجائر .. على الجدار قطعة من جلد نمر وقناع أفريقى . هذا هو المكان الذى كنت ألقى بـ[illegible]لا فيه ..

جاء من خلفى وهو يترنح ...

وقف على الباب وراح يجفف عرقه بالمنشفة .. هناك رجــال يعتبرون أن المنشفة أداة لتجفيف العرق لا الماء.. كان ينتظر ما يعرف أننى سأقوله .. وقد قلته بعد ما أغلقت الباب ..

ــ « أريد أن أجد الفتاة الإيطالية .. »

عاد يقول فى ملل وهو ينكش شعره الأزرق المجعد بأنامله :

ــ « أنت لا تصغى جيدًا .. قلت لك إنه لا توجد فتاة إيطالية ، ولو كانت هناك فأنا لا أعرفها ولم أرها .. »

قلت للمرة الألف :

ــ « أنت نصحتها أن الفتى ليس من هذا الطراز .. وهى قالت لك أن تحتفظ بتصنيفاتك لنفسك .. هى صبت فى دمــى مخــدرًا قويًا أفقدنى صوابى .. المشكلة هى أننى لا أعــرف اســم هــذا المخدر ولا تركيبه. على قدر علمى لا يشفى أحــد مــن مخــدر لا يعرف ما هو ولا كيف تعاطاه .. »

ــ « هل فهمت ؟.. أنت لا تذكر كيف تعاطيته .. لم أر فــى حياتى مدمنًا لا يذكر طريقة تعاطى عقار .. الأمر كله هذيان يــا صديقى .. »

كان يتكلم بثقة جعلتنى أتمنى تحطيم رأسه ..

وهذا ما فعلته ...

من الكيس أخرجت الثقل الحديدى الذى أضعه على الصفحات فى كتبى ، وهويت به على رأسه .. لم يفقد وعيه فهو قــوى

التحمل ، لكنه اضطرب كثيرًا ... كان يشهق ألمًا وهو لايفهم .. كنت فى اللحظة التالية قد قلبته على الأريكة وأحكمت ربط الحبل الغليظ على معصميه .. لقد أعددت كـل شـىء مـسبقًا بحيـث لا أستغرق وقتًا ...

عندما بدأ يفهم ما يدور كان سن المحقن شبه مغـروس فـى جلد عنقه ..

اتبعت هذه التقنية من قبل لكنها كانت تهويشًا .. اليـوم هـى حقيقية ..

نظر لى بعينين متسائلتين ، فقلت وأنا ألهث :

ـ « أعتقد أنك تفهم ما هنالك .. هذا المحقن ملىء بدم مـريض إيدز .. أخذته من المستشفى من أجلك خصيصًا .. لو لم تجب عـن أسئلتى بصدق وحماس فلسوف أفرغ محتواه فى وريد عنقك .. »

فتح فمه ليتكلم فقلت بسرعة :

ـ « طبعًا الصـراخ والاستغاثة لهمـا ذات معنـى الـرفض عندى .. لم أستطع أن أسد فمـك بشريط لاصـق لأنـنـى أريـد سماع ما ستقول .. »

أعتقد أن ملامحى المرهقة وعينى المجنـونتين نجحتـا فـى إقناعه أننى جاد ..

قلت له :

ـ « الآن لا أريد مزاحًا أو لعبًا بالكلام .. أين الفتاة الإيطالية ؟ »

قال شيئًا بصوت خافت ، فعدت أطلب منه أن يكرر .. كانـت ضحكة ساخرة كريهة على شفتيه وهو يقول :

ـ « أقول لك إنك لا يمكن أن تصيبنى بالإيدز .. أنا مصاب به فعلاً وأعالج فى ياوندى !... »

ثم انفجر يضحك ضحكًا هستيريًا عرفت منه أنه لا يكذب !

★ ★ ★

قررت أن ألجأ إلى الطرق القديمة الفعالة ، فأخرجت الـشريط اللاصق من جيبى وقمت بتثبيته على شفتيه .. ما دامـت سـبل الحرب البيولوجية لا تصلح هنا فلنستعمل أساليب البلطجية ..

قلت له وأنا أجلس على قدميه لمنعه من الركل ، وأدس يـدى فى القفاز البلاستيكى :

ـ « طبعًا أنت تدرك من القصة أننى مدمن وضائع تمامًـــا .. لقد أغلقت كل السبل أمامى وليس لدى ما أخسره ... »

م م م ف ف !

ـ « عندما تجد أن لديك ما تقوله أغلـق عينـك اليمنـى .. اليمنى .. هذه .. وإلا فلتعتبر أنك منته .. »

م م م ف ف !

ثم أخرجت من الحقيبة تلك اللفافة .. منـشفة صـفراء بهـا مجموعة أدوات جراحية مخيفة الشكل .. مجرد مشهد المنـشفة جعله يتوتر ..

قلت وأنا أخرج المبضع والجفت :

ـ « أنا جراح ممتاز .. لكن الجراحة التى لم أمارسها طيلـة حياتى كانت استئصال المثانة .. كنت أتوق للتجربة لكن أحدًا لم يعطنى الفرصة .. هل من عين يمنى ؟.. لا ؟.. شكرًا لك .. سـوف أبدأ وأنذرك أن هذا يؤلم فعلاً.. لكنى سأكسب خبرة هائلة .. هذه الأدوات معقمة طبعًا لكن لا أضمن أن تظل كذلك ، خاصة أننى أنا نفسى غير معقم .. هذه ألعن ظروف تجرى فيها جراحـة كمـا

تعلم.. دعك من أنك تقاوم .. هكذا يمكن أن أمزق الأورطى نفسه ولا لوم على .. »

وبدأت أرفع فانلته الداخلية وهو يقاوم بعنف ... كأنى أركـب ثورًا فى مباراة (روديو) فى الاباما ، لكننى لست ضعيفًا جدًا .. يمكن أن أبقى حيث أنا ...

صبرًا .. أنت تعرفنى .. يمكن أن أكون مرعبًا لكنى لن أفعـل هذا .. الفكرة هى أننى أضعه تحت أقسى ضغط عصبى ممكن ..

وبالفعل نظرت لوجهه فلم يغمض عينه .. كان يبكى ويرتجف لا أكثر ..

كل هذا الضغط وكل هذا التهديد وليس لديه ما يقوله.. لـيس لديه سوى البكاء المثير للشفقة ..

النتيجة المنطقية الوحيدة هى أنه صادق !

ـ9ـ

دون كلمة أخرى انتزعت الشريط اللاصق من على شفتيه ، ثم قطعت الحبل حول معصميه بالمبضع ..

نهضت فى الوقت المناسب كى أتجنب ركلة ثور هائلة كاد يسددها لى ، ثم حملت الكيس ووضعت أدواتى فيه ، وغادرت المكان ..

لابد أنه ما زال يتكلم حتى اليوم عن ألعن مجنون قابله فى حياته .. أنا ..

كنت أعرف أنه لن يتصل بالشرطة أو حتى يحاول الانتقام ذاتيًا .. مثل هذا الرجل لا يهمّه إلا أن يستمر تدفق الدمل والعملات فى دُرجه. ما دام العمل مستمرًا فليذهب الجميع لنجحيم .. لا يريد أى شىء يعطله أو يفسد سمعة المكان السيئة أصلاً ..

كان يعرف كذلك أنه تخلص منى للأبد .. هذا واضح ...

أمثال هذا الرجل يرون الأرواح بدقة ، ولابد أنه رأى روحى فى النهاية ، وعرف أننى لست من الطراز الذى يستأصل مثانة رجل حى مقيد ... ليس لدرجة أن يجازف طبعًا ....

أنا بدورى كنت قد قررت.. الرجل الذى لا يعترف بسر بينما مجنون يوشك على استئصال مثانته بلا تخدير ولا تعقيم ، هو رجل لا يملك هذا السر أصلاً ...

★ ★ ★

هى مشكلة عويصة فعلاً ...

لقد قابلت فى حياتى أشخاصًا كثيرين لم يكن لهم وجود ، لكن قصة هذه المرة لا تنتمى لهذا الطراز .. كل شىء حقيقى وملموس جدًا ..

لا يعرف شيئًا عن باولا .. وباولا لم تعد تظهر ..

لن أعرف أبدًا ما فعلته بى ولا ماذا صبته فى دمى ولا كيف..

لكن ربما كانت المشكلة قابلة للحل الذاتى .. السم يغادر دمى وأعراض الانسحاب تقل .. بعد أيام سأعود شخصًا طبيعيًا وتنتهى القصة عند هذا الحد..

صحيح أن الانتقام شىء شهى ، وأنا راغب فى تذوقه لكن ما دام مستحيلاً فعلى أن أنساه ..

قالت باولا :

ـ « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

بدأت آكل جيدًا ..

الحقيقة أن برنادت نبيلة جدًا .. لقد تمت تربيتها جيدًا فعلاً . مهما كان الخلاف معها فهى لا تقصر فى رعايتى .. هى لا تضرب تحت الحزام أبدًا .. وقد تكفلت بأن تطعمنى جيدًا ..

فيتامين سى عنصر مهم فعلاً. يبدو أنها قرأت طرق انتزاع السم الطبيعية كما يطبقونها فى إسكندنافيا ، وبدأت معى خطة تعتمد على الفيتامين سى والملينات وزيت الزيتون ..

بدأت استرجع وزنى نوعًا وبدأت رحلة ثقوب الحزام بالعكس ..

كل المشاكل يمكن أن تحل ما لم أعد لألبرت .. وأنا قد قطعت علاقتى بهذا المكان للأبد .. لو ظهرت هناك لفتكوا بى ...

المشكلة الأخرى التى أنساها هى أن هناك تحقيقًا قريبًا .. وهذا التحقيق لن يمر على خير على الأرجح ....

سوف تكون هناك تهم ممتازة تلائم الجميع .. تهم بالصلصة وتهم بالمايونيز وتهم بالصلصة المكسيكية ..

كنت أمشى فى الوحدة شارد الذهن أفكر فى الجحيم الذى ينتظرنى قريبًا ..

عندما وجدت ماكفلاى أمامى ..!

كيف نسيت ماكفلاى ؟

هرعت نحوه فى لهفة فتراجع بضع خطوات وهتف :

ـ « ماذا دهاك ؟.. منذ ذلك اليوم عند (مولانجا) .. لم أرك ثانية ، لكن يقولون إنك تتصرف بطريقة غريبة .. »

وضعت يدى على كتفه فتشنج قليلاً كأنه لا يريد ، وقلت :

ـ « الأمر سهل .. صديقتك تلك قد أغرقتنى فى مخدر ما .. مخدر لا أعرف عنه سوى أنه الشمس الأرجوانية .. مخدر طويل المفعول ولا يزول من الدم أبدًا .. »

قال وهو يمشى معى :

ــ « من ؟.. صديقتى من ؟ »

ــ « الإيطالية .. باولا .. »

توقف ونظر فى وجهى وقال فى ثبات :

ــ « لحظة .. أنا لا أعرف ولم أعرف أية أنثى إيطالية اسمها باولا .. »

إذن نحن نلعب لعبة (الفتاة التى لم تكن) ... لو كنت تحسب أننى قد جننت إلى حد رؤية فتيات كاملات فأنت مخطئ .. هذه أشياء مثيرة فى القصص لكن ليس فى عالم الواقع ..

ــ « عزيزى .. أرجو أن تكف عن هذه اللعبة .. أنا فى الجحيم .. فلا تحاول أن تبقينى هناك . أنت من قدمنا لبعض .. هذه الفتاة دخلت عالمى لأنها رأتك معى .. »

عاد يقول فى حرارة :

ــ « لا توجد فتاة بهذا الاسم .. أنت تتخيل .. »

ثم ضحك وجفف عرقه وقال :

ــ « لو لاحظت رنين الاسم لوجدته إيطاليًا جدًا جدًّا .. الاسم الذى يمكن لأى منا أن يختلقه لو اختلق فتاة إيطالية .. ليس اسمًا معقدًا مثل (أريانا) مثلاً .. »

أفهم كلامه .. طريقة فبركة الأسماء هذه عندما لا تتكلم عن شخص بعينه .. الإسرائيلى حاييم والمكسيكى بابلو والفرنسى جان والألمانى هانز والعربى كريم أو عظيم أو قاسم ..

كنت على وشك ضربه كالعادة ، ثم وجدت أننى سببت ما يكفى من مشاكل .. وفى النهاية لن يفعل شيئًا ولن يقول شيئًا .. سوف يتكرر موقف ألبرت حرفيًا .. سوف أصير الأبله الوحيد ..

هكذا فارقته وأنا أسب وألعن بالعربية ..

على كل حال لدى ما يكفى من مشاكل دون هذه الباولا ..

★ ★ ★

قالت باولا :

ـ « سوف أمنحك النسيان .. فقط اغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

لم تمنحنى النسيان ولا الفهم ولا لحظات مرح ..

كانت الشمس الأرجوانية باهظة الثمن جدًا ....

—10—

فى مصر لم يعرف الناس الشمس الأرجوانية ..

لم يعرفها الناس فى أى مكان بالعالم .. إنها سر الأسرار .. فقط باولا علمتها لى ..

هناك فى ذلك الكهف البعيد تسلقت الحجارة الحادة ، وسال الدم من باطن قدمى ، ثم جثوت على ركبتى وزحفت إلى الداخل وسط المشاعل والنيران ..

كانت باولا تقف هناك .. قبيحة نحيلة لأنها لا تأكل سوى لحم الوطاويط .. إنها الكاهنة العظمى ..

تلبس حذاء غليظًا لأنها تدوس أجساد الرضع الغضة النابتة من الأرض ...

تفاحة آدم العملاقة تشى بأنها التهمت أكثر من كوكب قبل اليوم ... بعض الكواكب لا ينزل إلى المعدة ويبقى هناك ..

كنت أحمل الماضى والحاضر ووعودًا بالمستقبل ..

كنت أحمل أحلامى وقصة حب المراهقة وقصيدة أولى ورائحة النبق بعد المدرسة ، وبلل المطر فى نوفمبر عندما كانت الرائحة الندية تتصاعد من حجارة الطريق ..

هناك كانت الأحزان ترقص .. كانت المخاوف ترقص ..

وباولا تأخذ القرابين منى ، وتتفحصها بعناية وتقول :

ـ « لا بأس .. لكنك لم تجلب لى ملمس كف حبيبتك ولا عبق أنفاسها .. لم تجلب لى مذاق أول قطرة عسل تتفتح فى دمك .. لم تجلب لى أحلام الطفولة .. »

الميزان العملاق تزن به باولا ما جئت به ، ثم تضع الشمس الأرجوانية فى الكف الأخرى ..

أنت تستحق .. أنت تستحق الشمس الأرجوانية برغم كل شىء ..

نم .. نم وافتح أحشاءك ورئتيك ..

أشق بطنى لتتواثب أحشائى فى الهواء .. ماكفلاى هنا .. إنه جراح ولسوف يجعل الأمور أسهل . أحشائى تتلوى كالسكيلا فى (الأوديسة) .. وحش له عشرات الأرجل يفتش عن شىء يقتنصه ..

. الشمس الأرجوانية تتوهج .. تتألق ...

تحرق كل الذكريات الأليمة وكل القلق وكل المخاوف ....

إنها تعمى العيون ...

ماكفلاى نفسه يحترق وهو يصرخ ..

تقول لى باولا :

ـ « هلم ... تذكر أن الشمس الأرجوانية لا وجود لها .. أنا لا وجود لى .. نحن سر الأسرار .. لا تسأل عنا ثانية.."

لأنه هناك فى فجر التاريخ ، جلست الجبال فى وضع الاحتباء ، وراحت تدق النسيان .. تدقه بلا توقف لتحيله مسحوقًا ناعمًا ... كومة عالية من النسيان راحت ترتفع وترتفع ...

جاءت النسور تحلق ، فرفرفت بأجنحتها وولدت العواصف .. العواصف بعثرت مسحوق النسيان فى كل صوب .. نسيت الجبال أنها حية وأنها قادرة على الحركة ، ونسى البشر أنهم تعساء. فقط لم يبلغ المسحوق الكهوف .. وأنا كنت فى كهف من الكهوف فلم أنشق المسحوق .. لم أنس .. لهذا أنا تعس .. لهذا أنا أتألم ..

وبدأت أعوى فى حزن .. الدمع يسيل على خدى بلا توقف كأنه شلال ، والشلال سوف يغمر الوديان ويغرق الكلأ والغابات ... الوعول ستموت غرقًا ...

أعطينى المزيد حتى لا تموت الوعول ....

* * *

كانت الشمس الأرجوانية تتدفق فى دمى ..

هناك خلجان تقف عليها الذكريات ، وهذه الخلجان غرقـت .. ارتفع المد مع الطمى الأحمـر .. راح النـاس يـصرخون فـى ذكرياتى ، بينما المد يحملهم مع الشمس الأرجوانية ..

الشمس الأرجوانية دخلت إلى قلبى ..

كان صغير الحجم دقيقًا لكنها راحت تنكمش أكثر فـأكثر .. راحت تدور حول قلبى إلى أن وجدت بوابة مناسـبة .. الوريـد الأجوف السفلى .. انصبت فى البطين الأيمن وظلت هناك ... لم تذهب لأى موضع آخر برغم أننى أقنعتهـا كثيـرًا .. غرسـت أعلامها وراحت تتوهج بألف لون ..

إن قلبى لا يحتمل هذا كله ..

قلبى يوشك على الانفجار ..

قلبى لا يخفق ..

-11-

كنت أمشى فى الوحدة شارد الذهن ..

هنا شعرت بيد توضع على كتفى . استدرت مهمومًا للخلـف فرأيت د. جونستون .. نظر لى وابتسم وقال :

ــ « لا بأس بمظهرك .. تبدو لى قد كسبت بعـض الـوزن ، وشذبت لحيتك ... فارق كبير عن المرة الأخيرة.."

قلت فى سخرية مريرة :

ــ « الإقلاع عن العقاقير مفيد للصحة فعلاً .. »

قال فى غموض :

ــ « الشمس الأرجوانية .. هذا هو اسم العقار طبعًا .. قال لى ماكفلاى إنك تفتش فى كل مكان وتسأل عنه.. لا يوجد عقار بهذا الاسم على قدر علمي"

قلت له وقد رأيت ألا أدارى شيئًا :

ــ « فى تقديرى أنه عقار جديد تمامًا ذو فعالية هائلة ، وقـد جربتُه علىّ تلك الفتاة .. »

ــ « الفتاة التى يؤكد ماكفلاى أنه لا وجود لها .. »

ــ « أوميرتا Omertà .. كما يقول رجال المافيا ... مـؤامرة الصمت .. لقد قرر الجميع أن يلوذوا بالصمت وألا يخبرونى بشىء لكنى واثق فى حواسى .. على الأقل حتى لحظة لقائى معها .. »

ــ « هل تتهم ماكفلاى بالاشتراك فى هذه المؤامرة ؟ »

ــ « لا أتهم أحدًا بشىء .. سوف أخرس تمامًا .. »

قال وهو يتأبط ذراعى :

ــ « هذا جميل .. لقد كنت اليوم فى المختبر وقابلت د. هيلجا .. هى لا تحمل نحوك ضغينة ما .. لربما قررت كذلك أن تتنازل عن شكواها .. تقول إن ظروفك صعبة أساسًا .. »

قلت فى غيظ :

ــ « لماذا ؟.. هل رأتنى أتسول ثمن كأس من الخمر مثلاً ؟ »

ــ « لا .. لكنها تتكلم عن علاج الإيدز الوقائى الذى ستأخذه ..! »

نظرت له فى ذعر وتراجعت خطوات كأن هناك من كان يمسك بخناقى ..

قال على الفور وهو يمد يده نحوى مهدئًا :

ــ « تحليل دمك موجب لفيروس HIV .. إن الأنبوب الـذى هشمته بيدك كان ملوثًا بالفيروس ، وأنت قلت إنك متأكد من أنه كان نظيفًا .. »

ــ « هذا ما قالته هيلجا .. »

ــ « هى لم تقل .. يمكن أن تضيف هـذا لفـاتورة الـشمس الأرجوانية. عل كل حال الأمر هين .. سوف تأخذ كورسًا قصيرًا من علاج الإيدز حسب البروتوكول. د. آرثر شيلبى سوف يحدد لك كيف تأخذ العلاج .. »

كأن الأمر ينقصه هذا !

بدأت أتوتر وأمشى فى مكان ضيق جيئة وذهابًـا ... نفـس أسلوب النمر الحبيس القديم .. أنا عصبى فعلاً لكـن لا أعـرف كيف أتوقف ..

دمى ملوث ...

لم تعد الشمس الأرجوانية هناك ولكن فيروس قذر .. فيروس يشبه الشمس إلى حد ما .. فيروس أطار النوم من عيون البشر ،

وهو الآن يمرح فى خلاياى .. هيلجا سامحتنى لأننى فى كارثــة .. هيلجا سامحتنى لأننى لحم ميت ...

من الغريب أن هذا لم ينجم عن التعاطى .. نجم عن عــصبية الانسحاب !

هذه الأمور الغريبة لا تحدث إلا معى ..

فارقته ورحت أركض بلا كلمة واحدة عبر طرقات الوحـــدة .. خرجت إلى الحديقة حيث السيارات تنتظر وحيــث كــان المطــر الأفريقى ينهمر بغزارة .. دافئًا حارًا ...

رفعت وجهى للسماء وصحت :

ـ « رباه !.. فلينته هذا الكابوس ! »

آرثر شيلبى كان هناك ينظر لى فى دهشة .. ينظر لــى فــى شفقة ..

ارتميت بين ذراعيه .. وهــذا تبسط لا يفهمه الغربيون لــذا تراجع للخلف خطوتين وقال :

ـ « هلا هدأت أيها الشاب ؟.. لقد قالوا لى عن حالتك .. حظ سيئ لكنها ليست نهاية العالم بالتأكيد .. سوف نذهب إلى مكتبى ونناقش خطة الوقاية الدوائية .. »

كنت أبكى لكن المطر ساعد على أن تختلط قطراته بالــدموع مثل تلك الأغنية القديمة لدميس روسوس.. فى المطر يمكنك أن تبكى .. لكنك تتظاهر بأن هذه قطرات مطر ...

كان يحسبنى أبكى بسبب خوفى من الإيدز .. لا طبعًا ..

كنت أبكى لأن جهازى العصبى بلغ نهايته ... سوف يتصاعد الدخان الأزرق بعد قليل .. سوف يشم الناس رائحة الشياط ....

قال لى وهو ينظر للسماء :

ـ « سوف يصل المحقق الآن وربما الكهرباء .. أقتــرح أن نبتعد .. »

لم أفهم ما يقول ....

لكن الشيء حدث فعلاً ..

من بين الغيوم والأمطار المنهمـرة رأيـت تلـك الماسـورة المعدنية العملاقة تهبط .. سفينة فضاء هائلة الحجم اختـارت حديقة سافارى للنزول ..

جرى شيلبى خوفًا ..

لكنى سقطت على الأرض الزلقة ..

استدرت لأنهض وألحق به ، لكنى أدركت أن هذه الماسـورة الهائلة تتجه مباشرة إلى قلبى ..!

ـ12ـ

تم الارتطام ...

اخترق الشىء قلبى .....

وانتفضت .. حاولت النهوض ...

وسمعت من يقول لى :

ـ « هلم ! »

ثم شعرت بشىء يوضع على أنفى ... عاصـفة مـن بحـر الشمال تهب على حدود أنفى وتحاول أن تتسرب داخلى . آخـذ العاصفة كلها .. أحتويها داخلى ...

أرتجف بلا توقف ..

إن عاصفة شمالية فى صدرى .. إنها تحمل الكثير من الثلوج والرنة والرنجة و.... انقذونى ..

ـ « استنشق بقوة .. »

ـ « إنه يتنفس ! »



-13-

فى الضوء الخافت أرى الوجوه ..

ليس الظلام دامسًا .. الشمس الأرجوانية تلقى بضوئها المخيف السوجس على كل هذه الوجوه ، فتشعر أنها نهاية العالم .. إنها النذير ...

أول الوجوه هو وجه (ماكفلاى) المحتقن ، ومن الواضح أنه يقوم بكل شىء ..

أقول له والعرق يتكاثف على جبينى :

ـ « الإيدز .. سفينة الفضاء العملاقة صارت ملوثة بفيروس الإيدز .. »

ثم أرى وجه (مولانجا) ورأسه الأصلع بما عليه من شعر أزرق مجعد ، فأقول :

ـ « وهذا أيضًا .. هذا الوغد ملوث بالايدز ... أنتم فى بيئة غير صحية يا سادة .. »

أنا راقد .. صدرى عار .. يعلو ويهبط .. التنفس صعب .. لا أستطيع التنفس وسط هذه الوجوه الكثيرة.. كلما جذبت الهواء

لصدرى انحشر رأس أو رأسان فى طاقتى أنفى وفى الشعب الهوائية ... النتيجة أن الهواء لا يصل .. أسعل فتتطاير الوجوه فى فضاء الحجرة ...

أحاول النهوض لكن ماكفلاى يقول لى وهو يرغمنى على الرقاد :

ـ « لا تنهض ... »

فى يده محقن ..

هناك بين الوجوه أرى الوجه العظمى منكوش الشعر .. باولا !.. إنها هنا .. تشع كشمس أرجوانية نحيلة فى الغرفة المظلمة .. لو أن الشمس نحيلة لها شعر منكوش وأسنان بارزة وتلبس حذاء غليظًا لكانت هذه ..

قلت لها :

ـ « بعد هذا كله سيزعمون أنه لا وجود لك .. إننى لأسائل نفسى .. ماذا يجب على المرء عمله ليثبت أنه موجود وأن الآخرين موجودون ؟ »

لم تتكلم .. كانت فى حال هى مزيج من الرعب والتظاهر باللامبالاة والندم والضيق ... لابد أن حذاءها العملاق يضايق قدميها ..

كانت أسطوانة أكسجين بجوارى .. ألا تخشون من أن تنفجر وهى جوار كل هذا الوهج ؟.. وهناك مسعف أفريقى .. بينما (مولانجا) يقول للوجوه التى تكاثرت على الباب :

ـ « عودوا لمرحكم .. لقد انتهى العرض .. لا توجد مشاكل .. »

فتاة قصيرة بدينة ظلت جوار الباب تنظر لى فى فضول ، فدفعها فى غلظة قائلاً :

ـ « لم يمت للأسف .. العرض المثير الذى جئت لترينه لم يحدث .. هيا ! »

كنت أشير له بإصبع الاتهام وأكرر :

ـ « أنت وغد .. »

قال وهو يضرب رأسه الأصلع :

ـ « هذه هى النتيجة دومًا .. أنا وغد .. الوغد الوحيد .. ولسوف تصير الحياة أفضل لو تم حرقى فى فرن .. »

ماكفلاى يصغى لقلبى بالمسماع للحظات ، ثم يقول للمسعف :

ـ « لن يحتاج إلى حقنة ادرينالين أخرى ... »

صحت فى دهشة :

ـ « أدرينالين ؟ ... ادرينالين ؟ »

قال وهو يعيد قناع الأكسجين إلى أنفى :

ـ « نعم .. لقد اضطررنا لحقن الأدرينالين فى قلبك مباشرة .. لقد توقف قلبك لثوان ..! »



-14-

أنا الآن فى فراش بوحدة العناية الفائقة فى سافارى ..

لولا ماكفلاى لقضيت نحبى فى تلك الليلة السوداء وفى تلـك الغرفة القذرة..

أين باولا ..؟.. لقد انسحبت على الفور .. لم تغادر غرفتهـا التى تقيم بها فى الطابق العلوى من ملهى (مولانجا) منذ شهر ..

وعرفت الكثير من التفاصيل ..

جــاءت برنادت لتــرانى وهى ترتجف .. الدمــوع تسبقها .. أمسكت بيدى ولثمتها فرحت أعبث بخصلات شعرها .. برغم كل شىء ستحزن كثيرًا لو أننى مت ..

لم يكن هناك فقدان وزن .. لم يكن هناك كــلام معهــا .. لــم نذهب إلى مولانجا .. لم أجرح يدى .. لم أطارد هيلجا بــانبوب اختبار ...

لم يكن هناك شىء ....

* * *

باولا كانت صحفية ورسامة وأديبة .. اختارت أن تظل هنا إلى الأبد ، لكنها تقيم فى العاصمة (ياوندى) . منذ أعوام لم تــأت إلى هذه الحانة البائسة ...

جميلة ؟.. لا .. نحيلة جدًا ولها شعر منكوش مجنون يتطاير فى كل اتجاه ، ولها وجه عظمى فيه لمسة رجولية. قليــل مــن الرجال من ينجذب لقلم رصاص كهــذا .. لهــا أســنان حــادة مشرشرة وحنجرة بارزة على شكل تفاحة آدم ..

بالإضافة لهذا كانت تجمع بين المخدرات وشىء من الخبال .. كانت تعتقد أنها ابتكرت مخدرًا جديدًا عبقريًا اســمه (الــشمس الأرجوانية) وكانت تتعاطاه كثيــرًا ، وارادت أن تهديــه لعــالم الإدمان ..

كانت تبحث عن رجل تعتقد أنه يصلح .. وكنت أنا هذا الرجل ..

لابد أنها دست شيئًا فيما أشربه .. هذا هو الاحتمال الوحيد ، فلم أكن أسمح لمخلوق بأن يحقن سائلاً مجهولاً فى دمى ..

عندما انفردت بى فى تلك الغرفة عند مولانجا ، ملأت المحقن بالشمس الأرجوانية وأفرغته فى عروقى ..

لم تكن الشمس الأرجوانية سـوى مـزيج مـن الكوكـايين والهيروبين مع بعض الديازيبام والكورامين ، وكان تقـديرها أن الكوكايين منشط بينما الهيروبين مهدئ وبالتالى يزيل كـل مـن العقارين الآثار الخطرة للآخر ..

لم تكن غبية .. كانت تعرف أن هذا الخليط (كوكايين ـ هيروبين) فى محقن واحـد هـو خليط (سبيد بول) أو (كرة السرعة) المعروف ، وهو تركيب خطر جدًا .. لقد قتل مشاهير كثيرين ؛ منهم الممثل الكوميدى جون بيلوشى والممثل الشاب (ريفر فينكس) الذى مات على بعد خطوات مـن أخيـه (واكـين فيـنكس) . المشكلة فى هذا الخليط أن مفعول الكوكايين أقصر .. مـن ثـم يزول فلا يبقى إلا تأثير الهيروبين اللعين المهبط للجهاز التنفسى . لهذا أضافت الكورامين لتنشط الجهاز التنفسى .

صبت هذا الخليط فى دمى بمحقن ...

ما حدث هو أننى لم أنتش ..

لقد شخصت عيناى وشحب لونى ..

وعندما تحسست نبضى أدركت أن قلبى قد توقف ..

صرخت تنادى ماكفلاى الذى كان نصف ثمل ، فركض ليجدنى جثة شاخصة العينين على الفراش .. ومن مكان ما ظهر مولانجا يردد كلمات مثل :

ـ « حتخربوا بيوتنا الله يخرب بيوتكم .. قلت لك بلاش زفت .. »

يمكنك أن تتخيل ما قيل على كل حال ..

طلب ماكفلاى الإسعاف حالاً ، ثم ركض خارجًا من الملهـى / الحانة / المقهى .. فصاح مولانجا غاضبًا :

ـ « الكل يفر لحظة الخطر .. أنا الأبله الوحيد الذى سـيظل هنا ليواجه التبعات .. »

لكن ماكفلاى لم يكن قد فر .. لقد تذكر أن معه فـى حقيبتـه بالسيارة عقاقير طبية. عاد مسرعًا ومـلأ محقنًـا بالادرينـالين وأفرغه فى قلبى ...

بعض لكمات للصدر وبدأ القلب يعمل من جديد ..

ثم جاءت الإسعاف ومعها الأكسجين ...

* * *



ما حدث فى تلك اللحظات كان رحلة طويلة غريبة ..

لقد تكفل العقار العجيب مع نقص الدم الوارد للمـخ بتـأليف قصة كاملة ، ألاحق فيها باولا وأضرب الناس وأحاول اسـتنتاج ما تعاطيته ...

لقد جربت ذات مرة شعور حالة الإغماء القصيرة ، وقد غبت عن الوعى لثوان .. فى هذه الثوانى عشت حياة كاملة وتزوجت حبيبة صباى وهاجرت إلى الصين (لا أعرف لماذا الـصين) ، وعندما أفقت لأجد أننى فى ذات المكان أصابنى الذهول .. لقـد استغرق حلمى عشرين عامًا على الأقل ..

اليوم جربت الموت ..

كنت أموت وأحلم فى الوقت ذاته ..

كنت أقوم بكل شىء يمكن أن أقوم بـه لـو كنـت يقظًـا .. والشىء المثير للريبة هو افتراض ان هناك مخدرًا يؤدى عمـل كل أنواع المخدرات فى وقت واحد..

الشمس الأرجوانية جعلتنى أحلم. لكن الحلم كـان كابوسًـا ، وكان الموت يقف على بعد خطوات ينتظرنى فى لهفة ....

-15-

قالت باولا :

ـ « سـوف أمنحك النسـيان .. فقـط أغمض عينيـك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

فى التاسعة صباحًا دخلت إلى مكتب بارتلييه كى أتلقى العقاب عن الخطأ الذى ارتكبته فى العناية الفائقة ..

المشكلة هى أننى أعتبر أن هذا اللقاء قد تم فعلاً مما يسبب لى الكثير من الارتباك . تذكرت فرويد فى (تفـسير الأحـلام) عندما حكى أنه كان ـ وهو طبيب مقيم صغير الـسن ـ مكلفًـا بالمرور على العنابر فى صباح باكر بارد. غاب فى النـوم ولـم يصح .. لكنه فى نومه قام بمرور مدقق وفحص المرضى واحدًا واحدًا وكتب فى التذاكر كلها . عندما استيقظ متأخرًا عن موعده كان من المستحيل عليه أن يصدق أنه لم يقم بـالمرور فعـلاً . ولولا أنه لم يجد كتابته فى التذاكر لما صدق ...

السماء غريبة اليوم .. إنها خضراء تمامًا ...

شعرت بتوتر .. هل أنا فى الهلوسة إذن ؟.. أم لعل الهلوســة السابقة كانت هى الحقيقة ؟

مرت بى ممرضة فرنسية تعرفنى رأت أننــى أنظــر للســماء بدهشة فقالت دون أن تنظر لى :

ــ « غريب فعلاً.. يبدو أنه التلوث ! »

هكذا هدأت قليلاً .. على الأقل هى ترى ما أراه ...

قبل أن أدخل تأملت وجهى بعناية فى المرآة الموجودة بالحمام الملحق . لا يوجد شيطان يتمسك بخصلات شعرى هذه المرة ..

لم تكن فى المكتب أونوابا ولم تكن المقاعد ترقص ...

فقط قال بارتلييه فى مودة :

ــ « مرحبًا يا علاء .. أرجو أن تجلس .. لقد وصــلنا إلــى قرار بصددك .. »

ثم أردف :

ــ « لقد قررنا ألا نفعل أى شىء على الإطلاق .. أنت عنصر نشط أمين هنا ، ونحن لا نريد أن نعاقبك ... لكن لنعتبــر هــذه سابقة خطرة .. »

ــ « ألن توجه لى اللوم ؟ »

ــ « على الخطأ المهنى ؟.. نحن نفعل ذلك فعلاً .. »

قال باركر فى شىء من الهدوء :

ــ « يمكنك العودة للعمل من الآن ... »

شكرتهم ونهضت ولحسن الحظ لم يكــن هنــاك ســيرك بــه راقصون وأفيال فى الخارج ..

ما أثمن الواقع !... قاس ربما .. سخيف ربما .. ممل ربمــا ... لكن الحاجة إلى أن تصدق ما تراه عيناك ومــا تــسمعه أذنــاك لا تقيمّ بثمن ..

★ ★ ★

يمكن للمرء أن يحيا دون شمس أرجوانية ..

سنة الحياة تقول إن علينا أن نستمد العزاء مــن أنفــسنا .. لا من شمس أرجوانية ...

★ ★ ★



وفى شقة فى (ياوندي) كانت (باولا) تطالع كتابًا شعريًا ..

ترى هل يبحث رجال الشرطة عنها ؟.. هل قدم ضـدها ذلـك المصرى شكوى رسمية ؟.. هل يتهمونها بالأتجار فى المخدرات ؟.. لا مشكلة .. هى تعيش وسط الاتهامات ، لكن لربما كان عليهـا أن تتصل بالسفارة الإيطالية .. لربما كان عليها أن ترتب الأمور لمغادرة الكاميرون كلها ...

لكن ما مشكلة هذه الجرعة ؟.. ولماذا تتحملها هى بينما كـاد ثلاثة رجال يموتون عندما جربوا الشمس الأرجوانية ؟

راحت تتأمل المحقن المليء بالسائل ..

قالت لنفسها بصوت ناعم :

ــ « سوف أمنحك النسيان يا فتاة .. فقط أغمـضى عينيـك ودعى الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاولى فهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

دنت من المرآة وطبعت قبلة نهمة علـى انعكـاس شـفتيها الباردتين ..

ثم بحثت عن الوريد الوحيد الذى ما زال صالحًا فى سـاعدها الأيسر .. وغرست الإبرة .. ولنفسها همست :

ــ « رحلة سعيدة أيتها الحسناء .. »

وراحت تفاحة آدم تصعد وتهبط كأنها مضخة فى بئر بتـرول فى صحراء خليجية ...

أما ما حدث بعد ذلك فأمر يؤسفنى أنه بعيد جدًا عـن نطـاق عملنا فى سافارى .

د. علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى



مسابقة العدد الخاص لسافارى

PCR

ما إن صدر العدد الخاص من سافارى ، حتى انهمرت علـى إجابات الأصدقاء وكلها صحيحة تقريبًا . إما أن ثقافتهم واسـعة جدًا وإما أن الألغاز كانت أسهل من اللازم .. على كل حال كنـت قد عرضت جـزءًا من الكتيب قبل نشره على صديقتى العزيـزة المختصة بعلم الوراثة (دعاء حسين) ، فكان رأيها أن الألغـاز صعبة وأنه من الأفضل وضع فقرة للتلميح ، وقد اقتنعت برأيهـا .. فهل جاء التلميح أوضح من اللازم ؟.. ربما . على كل حال ليس الهدف هو تعذيب القراء ولكن الاستمتاع ، فإن كنا قد حققناه فقد نجحنا . دعاء وصلنى ردها ليكون الخامس؛ لكنها طلبت بوضوح ألا أعتبرها ضمن المتسابقين لأنها رأت الكتيب قبل نشره .

العنوان البريدى طبعًا هو :

metilegln@yahoo.com

ويتكون من تتابع القواعد :

AUG = Methionine (Met)

AUC= Isoleucine (ILE)

CAA = Glutamine (Gln)

برنادت تشكر كل من شارك فى المسابقة على إنقاذ حياتها من الوباء النزفى الخبيث.

الفائزون العشرون الذين كانوا أول من أرسل هم بطبيعة الحال مصريون فقط (وهذه مشكلة يجب أن نراعيهـا فـى الكتيبـات القادمة) . نقطة أخرى هى أن بعض الأوائل فازوا من قبل فـى مسابقة مماثلة فى سلسلة فانتازيا .

1 ـ الصديق حسام دياب (أرسل الحل أخوه خالد دياب).

2 ـ الصديق أنس إبراهيم من منتدى روايات.

3 ـ الصديق محمد أبو الغيط (مواطن مصرى كمـا يطلـق على نفسه) .

4 ـ الصديق كمال الحسينى .

5 ـ الصديق د. كريم الليثى ، وهو مندوب أدوية بيطرية فى السابعة والعشرين من عمره .

6 ـ الصديقة ريم حسن أو هبة أو مروة .. المهم أنها (ريم البرارى) فى منتدى روايات .

7 ـ الصديق أحمد السيد أبو رحال .

8 ـ الصديق محمد أحمد .

9 ـ الصديقة نشوى نبيل .

10ـ الصديقة هلا كمال محمد .

11ـ الصديقة هدى على .

12ـ الصديق أحمد محمد كرم محمد ـ روكسى مـن مـصر الجديدة والوحيد الذى كتب عنوانه !

13ـ الصديق أحمد السحار .

14ـ الصديقة هبة ظريف ـ 29 سنة .

15ـ الصديق عمر سعد الله (زاجالو) .

16ـ الصديق مهندس أحمد مجدى عبد العليم .

17ـ الصديقة علا عادل .

18ـ الصديق مهندس . أحمد أسامة سنبل من بورسعيد .

19ـ الصديقة سلمى الديب .

20ـ الصديقة مهندسة هبة عبد اللطيف .

هؤلاء هم الفائزون .. لكنى أعتبر كل من أرسل لى فــائزًا . سوف نرتب لقاء إن شاء الله عن طريــق مراسـلة عنـاوينهم البريدية التى أرسلوا منها ، مع جائزة أقل من سيارة رياضــية وأغلى من (شكرًا جزيلاً) .

أكرر شكرى وتقديرى وإلى لقاء ..

د. علاء عبد العظيم

سافاري
مغامرات طبيب شاب يجاهد
كي يظل حيًا وكي يظل طبيبًا

روايات مصرية للجيب

الشمس الأرجوانية

د. أحمد خالد توفيق

قالت باولا :

- « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان ، وعن الفهم » ..

وكان ثمن النسيان قاسيا جدًا . لا يقدر على دفعه إلا قليلون .

العدد القادم
المرض السابع

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن في مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

